أشرف عبدالله الضباعين

خوفٌ خلف الأقنعة

مجموعة قصصية

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٤/١٠/٥٠٢٨)

الضباعين، أشرف عبدالله
/ أشرف عبدالله الضباعين.-عمان: المؤلف،٢٠١٤.

( ) ص.
ر.أ.:٢٠١٤/١٠/٥٠٢٨
الواصفات: القصص العربية//العصر الحديث/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
٢٠١٥

خوفٌ خلف الأقنعة

يطلب من المؤلف مباشرة

عنوان المؤلف

الأردن – مادبا

خلوي: ٠٧٩٨١٤٢٤٩٦

بريد إلكتروني: a٣zazi@hotmail.com

الصفحة الرسمية للكاتب على موقع التواصل الإجتماعي

https://www.facebook.com/ThewriterAshrafDabain

تنويه:

تحتوي بعض القصص على كلمات وجمل باللهجة العامية المحلية في الأردن، ولذا اقتضى التنويه.

إهداء وشكر

إلى ولديّ أيمن ووسيم: اعلما يا ولديّ أني أُحبّكما وأنكما مصدر فخر واعتزاز لي.

إلى السيدة ابتسام معلوف: شكرا لجهودك الطيبة معي.

الأستاذ شبيب صوالحة،

الأستاذ بكر السواعدة،

حنا العلم،

أفرام ملكي.

تصميم الغلاف الفنان حنا العلم

المقدمة

من أراد قراءة هذا الكتاب فليجهز نفسه لأنواع مختلفة من القصص، وهنيئاً لمن أراد أن يتعرف إلى شخصيات هذا الكتاب وشخوصها متمنّيًا لكم رحلة جميلة مع قصصي القصيرة.

من شخصيات هذا الكتاب " مجحم" وهو شخصية هزلية ساخرة استخدمتها " للاستهزاء" من وضع ما أو عمل أو قول، سواء لفرد أو لمجتمع، ومع احترامي الشديد لكل من يحمل اسم " مجحم" إلا أن شخصية مجحم في هذا الكتاب خيالية ولا تمت للواقع بصلة كما أن كل الأحداث التي تجري مع "مجحم" هذا هي من نسج خيالي وتصوراتي والهدف هو عرض قضية لا تخلو من حكمة أو موعظة. ومجحم هنا قد يكون أنا أو أنت، هو أو هي أو هم، فهو شخصية إنسانية تجمع المتناقضات. كل إنسان هو مجموعة من الأعمال بعضها حِكم و بعضها تجارب تطغى بعضها على بعض، فيقال عن الإنسان حكيم إذا طغت الحكمة على مواقفه وغبيّ إذا طغت عليها الأخطاء، ومتناقض أو مجنون إذا قفز بين المتناقضتين. وهذا الأمر يجعلنا نطلق صفة على هذا الإنسان ترافقه طوال حياته وقد يرث هذه الصفة أولادُه وأحفاده لقباً عائلياً يرافقهم إلى الأبد. أليست أسماء عائلاتنا قائمة على صفة تصرف بها أحد أجدادنا فأطلق عليه اللقب وتوارثه من بعده أبناؤه وأحفاده! مجحم ليس الشخصية الوحيدة في هذا الكتاب، فهو احتل بعض المواقع ويبقى أن تحتل أنت ما يحلو لك من المواقع التي ترى نفسك فيها...أنا شخصياً أخذت كل

المواقع. فهذا الكتاب كتبته وكتبني وليس من كلمة أو حرف فيه إلاّ ونسجتها كجزءٍ من حكاياتي وحياتي ومن حكايات وحياة أشخاص مروا في حياتي.

هذه المجموعة القصصية تنقسم بين قصص ساخرة وقصص درامية وقصص خيالية وقصص فلسفية وهذا التنوع يعود لأن الحياة عينها فيها من هذا التنوع ما يجعلنا في لحظة سعداء وفي لحظة تعساء، في لحظة حكماء وفي لحظة أخرى مجانين بُلهاء، في لحظة نقف في قمة النجاح وفي لحظة أخرى في أدنى مستويات الفشل والإحباط. لذلك تجدون هنا التناقض والتشابه، الاقتراب والابتعاد، الفرح والحزن، الألم والخطيئة، الحب والكره، وأشياء أخرى كثيرة، أشياء قد تحبونها وأشياء قد تكرهونها، لكنها هنا موجودة " لتنبش" في دواخلكم شيئاً ما يريد الحرية، يريد الانطلاق لفضاءات لا حدود لها. إنها مجموعة قصصية تناقش قضايا إنسانية، وقضايا عاطفية، وقضايا اجتماعية، المحلية منها والإقليمية بغير صورة ، منها صور ساخرة ومنها صور درامية بعضها على شكل حوار ثنائي أو أكثر ، وبعضها على شكل حوار مع الذات.

وكنت كلما حاولت أن أرتب أوراق هذا الكتاب أشعر بالإحباط وأتراجع....ألعل الآلهة السومرية غضبت؟ أم الآلهة البابلية رأت في هذا الكتاب خطراً عليها؟ أم أن آلهة اليونان تتآمر علي؟ لعل آلهة الفراعنة لعنتني؟ أم انها تعويذة نفخها أحد كهان آلهة مؤاب؟ أم قراءة مما تيسر من مقدسات آلهة عمون وحشبون تمت على يد أحد كبار شيوخ هذه الآلهة جعلتني لا أعلم كيف أرتب أوراق هذا الكتاب! وأبدل عنوانه عدة مرات لأنني

أخفي بين العنوان والعنوان الأسرار المكتومة منذ بدء الخليقة لآلهة أمتهنت الكذب علينا لتضمن بقاء ولائنا لها مستمراً....لا ألومها لأنني فضحت بعض سر ألوهيتها في جزء من هذه القصص.

لقد وقفت طويلاً محتاراً بين هذه القصة وتلك القصة وهذا المقطع وذلك المقطع أيهم الأول وأيهم في الوسط وأيهم في الأخير؟ لم تنفع مع هذه الفوضى أبخرة البخور لطرد السحر واللعنة ولا إضاءة شمعة ولا فتوى ولا حتى مقطع من صلاة منقوشة على منقوشة زعتر!

كنت أقول في نفسي متى ستزول هذه اللعنة؟ إلى أن أشار إليّ أحد الاصدقاء أن أمارس تضحية، فقررت جمع الآلهة كلها في مؤتمر وهناك تآمرت عليها، وعلى مذابح الحرية قدمتها جميعاً تضحية، فانطلقت أرواحها من معتقلاتها السماوية ... ووضعتها في بعضٍ من هذه القصص.

وحقق هذا الكتاب ما كنت أصبو إليه وهو الحرية لأبطال هذه القصص وشخوصها الخياليين...الحرية للآلهة التي كانت مسجونة على هذه الارض منذ قديم الزمان...الحرية للكثير من ذكرياتي وآلامي وذكريات وآلام من مروا بحياتي.

في هذا الكتاب كما الحياة لا تعارض ولا كفر بل انعكاس لواقع الحياة المتناقضة، وهذا الكتاب وإن لم يكن دينياً فإنه يخبرنا بأن الدين ليس طقوساً وشعائر بل اسلوب حياة وتعامل... لا تعارض بين الإيمان والحب لأن الحب إيمان والإيمان حب، ولأن المطلوب أن ندخل عمق الكلام ونقرأ ما بين السطور ونتخلى عن حرفية المعنى لأن الحرف يقتل...

كتابي وإن حكى حكايا عن إله جديد فإنه بالتأكيد لا يوجد إله جديد بمعنى الكلمة ولكن هناك معنى جديد للألوهية... معنى إنساني للألوهية ومعنى إلهي للإنسانية غير التي يسوّقها رجال الديانات...

هذا الكتاب لم يولد من رحم التجرد ليخلق أوهاماً جديدة ويمنحها صفة الألوهية.

هذا الكتاب يقوم على روح كلمات نزار قباني في رائعته القصيرة حين قال:

"حين يقولُ، العاشقُ لمعشوقته: إنّني أعبُدُكِ فإنّهُ يؤكّدُ – دونَ أن يدري- أنَّ الحبَّ ديَانةٌ ثانيةٌ".

هذا الكتاب قناع لمن يخاف...

فعذراً أيها القناع لأنني مللت منكَ وقررت استبدال قناع آخر بك...

نعم هنا ستجدون أنواع الأقنعة والوجوه الكثيرة تلك التي وضعناها باختيارنا وبغير اختيارنا...هنا للأقنعة مناسبات وأزمنة وأمكنة ومقاسات وأشكال...

إنه نداء للريح... أن هبي خلف أشرعتي

فإن الرحيل على وصول...

وإنَّ الألم نستره....

بأقنعةٍ أبدلناها بقناعٍ من الخوف...

أخيراً الحق أقول لكم: لن أخاف مما سيقوله الناس عني، فلا تخافوا مما سيقوله الناس عنكم.

أشرف عبدالله الضباعين

مادبا – ٢٠١٥

الفصل الأول
روايات متقطعة الأوصال

" نحن نكتب الروايات لنقتل الأشخاص الذين أصبح وجودهم
عبئا علينا...
نحن نكتب لننتهي منهم "

احلام مستغانمي

الفصل الأول
روايات متقطعة الأوصال

كتابة رواية

تجاهلت كل تحرشاتي ومغازلاتي، وكل انفعالاتي وتعرقي، وكل محاولاتي لإشعال نار قلبها لتسألني عن الرواية الجديدة التي أكتبها...

لكنها لم تكن تعلم أنها هي الرواية الجديدة التي أحاول أن أقتحمها...

هل أنا ممثل فيها؟ أو مجرد عابر سبيل!

لنْ أكون البطل قط! ... لنْ أكون لاعباً رئيسياً فيها...

في الدفاتر القديمة هناك أوراق ممزقة يبدو أنني مزقتها لهدف لا أذكره..

ولكن عندما قرأت محاولاتي لكتابة الرواية كانت كلاماً غير مفهوم لأن الحبكة كانت في الأوراق الممزقة...

هكذا حياتنا دفتر...

مزقنا بعض أوراقه فما عدنا نفهم الرواية...

لكنكِ تعشقين الروايات التي تحولت إلى أفلام...

لماذا تعشقين الأبطال في الأفلام؟ مع أنه تمثيل وفيه الكثير من المؤثرات والديكور والمكياج وفي الوقت نفسه تكرهين التمثيل الحقيقي في الحياة حتى الذي نمارسه نحن...

نحن نمارس التمثيل أحياناً لِيَقبلنا الآخرون فنمارس ما يرغب الآخرون أن يرونا عليه...

فنظهر جوانب ليست فينا ونخفي جوانب هي أساس شخصيتنا، فإن أحبّنا الآخرون فهم لا يحبوننا لشخصنا بل للتمثيل... فإن اِنْكشف السر كرهونا!!

لماذا نلومهم؟ بل اللوم علينا.... لأننا لم نكن صادقين معهم ولا مع انفسنا.

البعض ما هم إلا مجرد صفحات رواية جاء وقت نهايتها سأغلقها ولنْ أعيد الكرة!!

لنْ يفهم أحد أننا رواية وأننا نعيش الحبكة وأنه موعد نهايتها.

رواية لم تقرأ

فتح العاشق رواية أهدتها إليه حبيبته....

وفي اليوم التالي بعثها إليها مع قصاصة ورق مكتوب فيها:

" ألم تكن الصفحة الاولى من الكتاب مزركشة برسومكِ ورائحتها كرائحة عطركِ؟ فما بال باقي الأوراق يتيمة أرى فيها كل النساء ألا وجهكِ أنتِ".

رواية جميلة

ولكل قصة وجه آخر وأبطال آخرون وحبكة أخرى لكن المؤلف غفل عن كتابتها لذلك هناك روايات جميلة جداً...

أمّا المعنى فهو ما تجده مخفياً بين السطور... أن تبحث عنه بين الكلمات... أن تنقب عنه كالكنز بين الحروف والحروف...أن تجعل خيالك يحلق مع خيال الكاتب فتكتب معه حروفه وكلماته... وأن تكون جزءاً من الأحداث التي يضعها الكاتب بين يديك وإلا فأنت يا صديقي خارج المعنى ولنْ تفهم عن ماذا نتحدث!

إن خير الكلام ما يصدر من قلب وإحساس، لذلك لا تصدقوا أيها الأحبّة القول: خير الكلام ما قل ودل، فخير كلام الحب ما صدر من إحساس...

لذلك أنا وأنتَ وأنتِ نص أدبي لم يكتب بعد.

أيها الراوي تباً لك

نحن الرواية وهو الراوي...

كُتِبَ لنا أن نكون هكذا... أطفالاً يموتون جوعاً ومرضاً، وشباباً يُذبحون ذبحاً، ونساءً يتعرّضن للخطف والاغتصاب...!!

كم أنت قاسٍ أيها الراوي الأبله الجالس في عليائك وقد نقشت أسماءنا بحروفٍ من عذاب على جداريتك البائسة تلك التي سميتها قصة حياة!!!

ما ذنبنا نحن أبطال روايتك الوهمية أن تخلقنا مُسخاء على دفاترك الحزينة... ثم ترتوي من أحزاننا وألامنا وجروحاتنا وعذاباتنا وتتمتع بها حتى الثمالة؟

لا تهدأ حتى ترى دماءنا تسيل فتستخدمها حبراً لإكمال روايتك التي لا تشبع تأكل بشراً ولا تنتهي أبداً...

أيها الراوي...تباً لك.

بين القلم والورق

تزوج القلم من الورقة وأنجبا كتابة... وكانت أنثى جميلة جداً ورقيقة..

إزميل

كلما حاول إزميل أن ينقش وجهي على حجر ينكسر وكلما حاول قلم أن يرسمني جملة على ورق أنحني له وأنهزم. كم من إنسانٍ حاول الكتابة على بحرٍ فشعر بصعوبة الامر إلاّ الآلهة فهم يكتبون والأمواج تنقلها إلى شواطئ البشر وعندما تصل تتكسر على شواطئ الجهل.

تحليل الكتابة

ذات يوم قررت أن أكتب فأخذت قلمًا ووضعته في أنبوب اختبار وثم وضعت عليه مواد من حب وغرام والقليل من العشق والهيام فتفاعلت كلها وحدث انفجار وهكذا تعرَّضتُ للحب الأول.

لكِ المساحة الكبرى

كم أكره الكتابة اذا لم يكن لكِ فيها المساحة الكبرى...أنا أحتضن قلمي لأنه لا يكتب إلاّ عنكِ.

طفل

بقلم الرصاص يكتب الطفل فيخطىء ويمسح بالممحاة الملتصقة في آخر القلم، ثم يعاود الكتابة محاولاً أن يكتب بخط أجمل وأن يكتب أفضل، فيخطىء مرة أخرى ويمسح...
تتساقط قطرات من انفه على الورقة فيحاول مسحها بِكُم قميصه فيتذكر أن أمه ستغضب جداً لأن قميصه قد اتسخ وستُعنّفه... ويعلم أن معلمته سوف تؤنّبه لأن دفتره قد اتسخ فيبكي...
وتتساقط دموع عينيه على الورقة فتزيد الورقة اتساخاً ويحاول أن يمسح فلم يقدر...
فلقد حدث ما حدث... وهو هناك على مقعده الخشبي بحجمه الصغير مرتعب يرتجف...
فتنتبه له معلمته لتأتي وتنظر في عينيه وتبتسم وتعانقه وتقبله على وجنتيه وتقول له: لا بأس أن نخطىء .

خربشات قلم

ما عاد يهم أن يكتب القلم أحاسيس ومشاعر لان الممحاة ما عادت تستطيع أن تمحو الماضي... كتب القلم ما كتب وما عاد يكتب أحاسيس ومشاعر بل أرقاماً وديوناً وفوائد...
قلمي يلومني عن عدم الكتابة منذ مدة فقلت له: " بريت احاسيسي حتى نفذ الرصاص منها..."
تلك العلاقة القائمة بين قلمي وممحاتي عَفا عليها الزمن وانتهى وتاه...إنه زمن قلم الحبر حيث لا ممحاة صديقة له وكم اتمنى لو عُدت إلى قلم الرصاص القديم جداً قبل

أن أعرف حروف العربية وقبل السقوط نحو الهاوية والسير نحو مجهولٍ معلوم.. ومعلوم مجهول والأحاسيس الغافية.
اشتقت إليك يا قلمي الرصاص...اشتقت إلى حضن دفترٍ تملأهُ قطع الممحاة تمسح الاخطاء.
لماذا ألوم قلم الحبر؟ ليس الحبر ما نكتب به بل هي الأفكار والخواطر التي نخربشها كالأطفال على الورقة.
لماذا ألوم الاقلام؟ ألا لعنة الله على القلم الذي لا يكتب أحاسيسي....لكنه يكتب أسراري!!!
لعنة الله على قلمي لأنه يكتب أسراري!!! متى ينتهي وجع قلمي....ووجعي؟
إن لم يكن قلمي كالسيف فلينكسر القلم ولينكسر قلبي...لكنه سيفٌ مسلّطٌ على رقبتي أنا...
فكسرت القلم...وما عدت أكتب!
بالسر أحاول أن أخفي قلماً جديداً يكتب... لكن دفتري فارغ وما عاد يتسع للفراغ... وكلما حاولت أن أكتب شيئاً بقلمي الجديد يئنّ الفراغ من الألم... فلا مساحة للكلام وسط الفراغ... فلماذا يزاحم كلامي فراغي ويحارب فراغي كلامي؟
قال لي قلمي يومها: " خربشاتي تؤلمني... فحزنت عليه ووعدته أن أطلقه حراً..."
متى سأفك قيود دفاتري؟ متى سأمنح الحرية لأقلامي؟ وأطلق العنان لصرخات الكلمات التي سطرتها على خطوط الدفاتر، تلك الكلمات الظاهر منها والمستور...
متى سأضع قلمي للمرة الأخيرة وأهجره ويهجرني وأتركه ويتركني وأنساه وينساني؟
كلماتي أحياناً فارغة من النطق والحديث لأنها لم تصل بعد للإنسان الذي أريد.

جروح ورسم

غادر صباح ويأتي مساء وتغادر وجوه وتبقى ذكريات... وهناك على سلم العمر نصعد درجة ونهبط درجتين فتتغير ملامح الوجوه وتبقى معالم الجروح... تلك الجروح ما هي إلاّ رسوم نرسمها بريشة أخطائنا على جداريات القلب فنكون أقرب للإنسان الأول الذي رسم جداريات الكهوف...

الكتابة رخيصة

كلما حاولت الكتابة لا أجد سوى علامات استفهام وتعجب أكتبها، كل هذا لأن لا شيء هنا قابل للتصديق أو الفهم... لذلك الكتاب في بلادنا رخيص جداً ولا يشتريه الجهلة... والسلاح مكلف جداً ويشتريه الأبالسة، فيعيش الجهلة تحت سطوة الشياطين.

الكتابة تعاسة

قد يكون الكاتب رجلاً كان أو امرأة يكتب أحلامنا في سطور يختصر المسافة بين اللسان والقلم ببعض الكلمات أو أنه كالرادار يلتقط ترددات أمواج عقولنا وقلوبنا فيترجمها أحاسيس ومشاعر في مقطوعاته وكتاباته. قد يكون الكاتب تاجراً طيّباً يُصّدر الأحلام حيث ممنوع لها الوصول وتمنع من الدخول عند الحدود، فيكون الكاتب حينها مُهرّب الأحلام ومنقذها من رجال الجمارك وحرس الحدود، وقد يكون المطرقة

التي تكسر مقصاً لرقيب في دواخلنا، فيكون حينها محرر الاوطان ومنقذها من بطش رجال المخابرات وحرس النظام.
إنَّ النص الادبي المطلوب يجب أن يكتبه حالم أو مجنون أو عابث، يجب أن يكتبه إنسان حر وبالطبع يجب أن يكتبه بلغته ونظرته ويجب أن يكون النص كما يؤمن هو وكما يريده الناس... لا كما تريده الأصنام والحجارة والقواقع الفكرية. لذلك يجب أن يكون النص إنسانياً، و اقتحامياً، ومتوتراً، ومجنوناً، وشهوانياً، ومنطلقاً، وفوق هذا كله واقعياً لدرجة الخيال وخيالياً لدرجة الواقع.
الأديب هو جريدة الحرية ومجلة الفكر وكتاب المعرفة.
وإطلاق يد الأديب ومنحه الحرية هو كمنح الوطن فكراً ومعرفةً وعلماً، والتضيق على الأديب هو بالتأكيد تضيق على المجتمع ككل وحصراً للعقل وحكماً باعتقال الفكر.
تباً لأوطانٍ لم يعد فيها مكان يتسع لحرية كاتب وثقافة مفكر وبلاغة شاعر وحرية لإعلامي أصيل، لأنه عندها نكون قد دخلنا مرحلة البؤس الفكري والانحطاط الثقافي والتلقين التعليمي والفشل التربوي ويكون الوطن مُتعبًا والمثقفون جائعين والشعب منهكًا والكل يلهث وراء لقمة العيش والهرب من هموم الحياة ومشاكلها اليومية.
عن أي ثقافة نتحدث في وطنٍ آخر همّ الناس فيه شراء كتاب!
عن أي ثقافة نتحدث في وطن يُسمح فيه بدخول اللاجئين بينما لا يسمح لنا نحن اللاجئين في الوطن أن ندخل مساحات الحرية!

أوراق وأوقات

الأوراق تصبح صفراء...
وتسقط مع أن الوقت ليس خريفاً...
مهمتي هذا اليوم هو تمزيق الأوراق القديمة وإتلافها مع أنها تحمل عبق الماضي وذكريات كانت وقتها مؤلمة...
لكن الحياة لا تتوقف أمام الأوراق الصفراء تلك الأوراق التي خط القلم عليها الشيء الكثير والخطايا الكثيرة.
إن الوقت للأوراق البيضاء... آن أوان أن تمتلئ هذه الأوراق الناصعة البياض بالشيء الكثير والخطايا الكثيرة.

حديث وصمت

اجتمع الحديث والصمت معاً، فقال الصمت: " أنا أبلغ منك"، فقال الحديث: " صمتاً أيها الصمت، فإن حديثك يزعجني فلماذا تأخذ وظيفتي؟".

مشروع لوحة

خرجتُ من مرسمي بغية البحث عن وجهٍ جديد أرسمه، وبينما كنتُ أسير في الشوارع حيث يكثر الذكور وتختفي النساء خلف حواجز من قماش أسود، قررت أن أرسم وجهاً لشابٍ يمنح الأمل.

كنت أسير وأحدق في الوجوه الكثيرة المتشابهة... فكلها وجوه للكآبة... مليئة بالخيبات والحزن... حتى الأطفال كانوا يعانون من التوأمة مع الحزن والكآبة...

لقد أورثناهم هذه القسمات الحزينة والتجاعيد العقيمة.

ثم لفت انتباهي ذلك الشاب الغريب المختلف، بقيت أنظر إليه محدقةً لعلي أكتشف سبب اختلافه... لعلي أستطيع أن أسبر داخله لأسرق تلك العبارات والملامح المختلفة... وأعود بها إلى مرسمي الأنثوي وأنقشها على لوحة بيضاء...

بقيت أنظر وأنظر إلى أن فاض فضولي فأغرقه وأغرقني فاقترب مني كثيراً إلى أن شعرت أن جسده لامس جسدي ونظراته تخترق جسدي وتكتسح دواخلي وابتسامته العريضة ووسامته الفائقة تدعوني لرسمه الآن...

" إنه هو" هو من أرغب برسمه...

وأما هو فقد همس في أذني وقال:" أين ترغبين أن نفعلها يا سيدتي؟ بيتي أم بيتكِ؟".

إساءة فهم لوحة

اعترضوا على الألوان والريشة واللوحة البيضاء، ثم اعترضوا على الرسم، اعترضوا على توقيتي!

فماذا فعلت؟ لقد قررت أن أكسر جمود اللوحة وأن أرسم مجدداً وأن لا أترك الريشة والألوان مجدداً بلا عصف من الحب.

في حضرة أنثى

أشعرُ أنني بلا إحساس... وبأنني كالإنسان الأول همي أن ألتقي ضحيتي في أقرب فرصة،

ووسيلتي قطعة خشب هي قلمي وأما ضحيتي فهي أنتِ...

قلمي يؤلمني...هل يؤلم القلم من في قلبه الجرح؟

فالحب ضحية وتضحية

من قال لكِ إن الحب لا نأخذه عنوة ولا بقوة...هو حقٌ لنا... فإن لم نأخذه بقوة أخذنا بعنف...

إن أجمل استعمار هو استعمار رجل لقلب امرأة...واستعمار امرأة لقلب رجل فعندها يحلو الاستعمار والاحتلال... والاجمل أن يكون الحب فيه دكتاتورياً وأبدياً وغير قابل للانقلاب...

إنه الجنون بحد ذاته...ألم تسمعي بمجنون ليلى؟

هذا المجنون، لولا جنونه لما أحببناه ولولا عشقه لما عرفناه ولكان مثل أي رجل آخر عاش ومات وانتهت ذكراه كما انتهى ملايين الرجال...

أُريد أن أبقى وأن يُخَلّد اسمي...

لكن ماذا أسمي ما بيني وبينكِ؟ أسميه من جهتي حبًّا ومن جهتك احتلالاً، أسميه من جهتي حقّا ومن جهتك ظلمًا، أسميه من جهتي خيرًا ومن جهتكِ خطيئة....

آه...كم من مرة سقطت سهواً فيكِ...

وكلما حاولت تصحيح الأمر والصعود مجدداً نحو مرتفعات جسدكِ أجد نفسي أعشق السقوط نحو الهاوية حيث أنتِ فيها اللذة والمتعة...

أشتهيكِ لأنك الشيء المفقود مني ولأنكِ الشيء الذي لم أصل إليه بعد...

أُحِبُّ الجلوس معكِ لكنني أخاف أن أهديكِ أسراري فتعرفين أني أُحُبّكِ فوق التصور...

وأبحث في قلبكِ عن وطنٍ بديل وعن هُويةٍ جَديدة.

يكون لي فيها اسم جديد... وعالم جديد...

كم من الحماقات اقترفت وندمت عليها وتوقفت عنها... إلاّ حماقتكِ أنتِ فما ندمت عليها وما توقفت عنها، تلك الحماقات التي مارستها سراً وعلانية، حباً وطوعاً وكأنني أمارس طقوساً وثنية وغير منطقية ولكن لا أجمل من حماقة وثنية أمارسها وأنا أحبها.

الفصل الثاني
روايات على هيئة قصائد

" دائم الخوف من أن يكتشف الأخرون كم أنت رقيق...
فيدهسونك بسنابكهم "

أمل دنقل

الفصل الثاني
روايات على هيئة قصائد

إحتساء قُبلة

أرغب باحتساء قُبلةٍ...أو قُبلتين
فهذا القلب يصلي في اليوم
مرةً أو مرتين.
أحتاج إلى جرعةٍ منكِ...
تداوي دموع العين.
فهذه الجرعة هي الداء...
وهي الدواء...
وسبب العشق...
وسبب البلاء.
وهي الصحو وهي الهذيان
وهي العطش وهي الارتواء
وهي سكرات الشراب
وهي سكرات الموت...
وهي قبلةٌ للحبِ...
فاجعليها قبلتين.

معالم جسد امرأة

دعيني أمرر أصابعي على معالم جسدٍ ما عادت معالمه تغريني...
دعيني أحدد الشمال والجنوب والشرق والغرب...
العاصمة والمدن والقرى.
دعيني أفتش فيه عن بقايا مني
بقايا مسلوبة ومأسورة منذ أن تم اعتقالي...
دعيني أفك قيود الحب
على جسدكِ... فلعل الحب يشفيني...
دعيني أقرر ما أريد عليه
لعل القرار يعتقني ويرميني...
دعيني أمرر نفسي
للجوف والكهف، للسهل للجبل..
دعيني أحدد بأي الطرق مشيت
وأي الشوارع ما زالت تنتظر مروري.

رواية عن أسودكَ وأبيضي

كل ما أنتَ مهتمٌ بِهِ هو أن تمارس في جسدي رجولتكَ المفقودة
وكل ما أنا مهتمةٌ بِهِ هو مرور شيءٍ منتصب القامةِ على أبيضي ليقلبهُ سواداً فيفقدني عذرية اللون...
بين أسودكَ وأبيضي لعبةٌ نمارسُ بها الرواية...

لعبتي الأنوثة... ولعبتكَ الرجولة. لعبتي ورقةٌ بيضاء...لم يكتب عليها أحدٌ قط... ولعبتكَ قلم حبرٍ أسود...
وبينهما يضيع الحبُ والرومانسية...

اعتقال

وحينما قبلتها...اعتقلت القبلة
وما أطلقتها
وحكمت عليها بالسجن المؤبد
ومن وقتها وقبلتها أسيرةٌ عندي.

همس وصراخ

وما زال طعم شفتيها يدغدغ داخلي
وملمس خديّها على خديّ
يثير جنوني وشجوني.
أضع شفتيّ على أذنيها
وأهمس:" إنيّ أُحبّكِ... يا مولاتي".
كم مرة كررتها؟
بعض المراتِ...
ملايين المراتِ...
وما أدراني؟
وهذه المرة سأهمس مجدداً: " إنيّ أُحبّكِ...

أُحبّكِ جداً..."
وأخاف أني من شدة الهمسِ
أنكِ لم تسمعيني...
وأن العالم كله سمع صوتي
واستهجن صراخي.

الباحثون عن أقمارهم

كيفَ أُعيدُ للمساءِ رونقه؟
ولليلِ في بدرهِ الجميل روعته؟
قلتُ: هل لي بقبلةٍ أيها القمرُ؟
إني أغار... بل أحسد الغيوم...
قال لي: " لمَ؟"
قلت له: " من صحبة الغيم لك...كم أشعر بالضجر من دونك".
قال لي: " إسهر معي الليلة فأنا أتحسس الأرض..."
فلمستُ خده...
وأما هو فداعب شعري حتى غفوت على ضوء القمر...
وعندما صحوت كان قد اختفى...فبكيت...
فمر من أمامي رجلٌ عجوز وقال لي: لا تبكِ اختفاء القمر... إن كان سيظهر من خلف الغيوم فسيظهر وإن كان القدر حكم له بالغياب للأبد فالتحق أيها الشاب بقطار المسافرين بحثاً عن قمر جديد...

لا تحزن هناك أغنية كلما تنشدها ستنضم إلى الباحثين عن أقمارهم.
" أين أنتَ يا قمري؟"

ثمالة شِعر

معشوقتي مدمنةٌ تشرب ساعة من حبري وساعة من قلمي، فلم تكتفِ بقليل من حبي بل تريد أن تسكر حتى الثمالة بقصائد من نثري.
هذه معشوقتي كلما أردت الكتابة، لا أجد في السطورِ إلاّ جملة واحدة: أُحبّكِ يا سيدتي.

لهفة وخيبة

لهفتي تسبق قدميّ صوبك ، وخيبتي تسبق كلماتي إليك.
ما الذي يمسكني عن حزنٍ بقدر البحرِ؟ ويهيجُ فيّ فرحاً بقدر السماء؟
ما الذي يمنعني من امتطاء الجنون فرحاً والعبث بقصائد الشعراء؟
ما الذي يثير حواسي ويجعلني أعشق دفعة واحدة آلاف النساء؟
من الذي بيده مقاليد قلبي وروحي وحتى أوعية الدماء؟
تتوجس نفسي إن ذكرتها... أن يصارعني عليها الرجال...
فأترك الأمر سراً...

غيباً...
بيني و نفسي
لئلا أفقد في اللحظة هذا الجمال!

ولا إحداهن لي

كم من مرةٍ مشيتُ في تلك الطّريق
ذهاباً وإياباً...أُريدُ المزيد
وأعود في كلِ مرةٍ خالي الوفاض...
مهزومًا بلا حبٍ جديد... كاسراً الجليد
وأقول لعلها المرة القادمة أصل مبكراً أو في المواعيد...
ولكنني كاللاعب الاحتياطي... أمارس الحب خارج السياق
خارج التقاليد
ومكتوبٌ على جواز سفري " أيتُها النساء احذرن العربيد"
أنا ألعب خارج الوقت... خارج النطاق... في مكانٍ بعيد
وكل النساء نسائي...كأنهن الجواري
كل النساء نسائي... ولا إحداهن لي.

الفصل الثالث
بنٌ وَ حُبٌّ

" البعض نحبهم... لكن لا نقترب منهم... فهم في البعد أحلى وهم في البعد أرقى وهم في البعد أغلى
البعض نحبهم... ونسعى كي نقترب منهم... ونتقاسم تفاصيل الحياة معهم ويؤلمنا الإبتعاد عنهم ويصعب علينا تصور الحياة حين تخلو منهم
البعض نحبهم... بيننا وبين أنفسنا... نصمت برغم الألم... لا نجاهر بحبهم حتى لهم لأن العواقب مخيفة ومن الأفضل لنا ولهم أن نبقي الأبواب مغلقة "

جبران خليل جبران

الفصل الثالث
بنٌّ وَ حُبٌّ

قهوةٌ خاليةٌ منكَ

أنا الغريبة التي أعمل في الغربة وأنتَ الوسيم الذي تدرس في هذا البلد البعيد البارد القاسي... هذا ما استطعت أن أعرفه عنك خلال ترددي على هذا المقهى... الذي أصبحت أزوره بلا سبب كل يوم... فقط لأرتوي منك ومن القهوة...

كل مرة أذهب فيها إلى ذات المقهى وأطلب فنجان القهوة نفسه الذي أعلم أنك ستجلبه لي مع صحيفة لا أهوى مطالعتها، فقط أتصفحها وأقلب أوراقها بلا اهتمام لأسرق من خلالها بعض النظرات إليك...

كل اهتماماتي هو أن أطالع عينيك... وأتلذذ بقهوة صنعتها يداك...

فالقهوة التي تعدها لي ليست كأي قهوة، ليست كقهوة الباقين، ففيها من بقايا عطرك والقليل من ذكورية ممشوقة كجسدك الفارع الطول اللذيذ الهيئة، لذلك قهوتك لها عطرٌ لذيذ، وهي ليست كقهوة هذا الغرب.. باردة الطلة.. خفيفة الطعم.. بل هي شرقية بامتياز وممشوقة وفارعة ولذيذة الهيئة مثلك، لكنها لا تخلو من الكثير من التعب والشوق... وبقايا جواز سفرٍ هاجر الى هنا! مثلي.

فكلانا مهاجر إلى مدينة لا تنام ليلاً ولا تتعب نهاراً..

كلانا مهاجر إلى مدينة اتفق الزمن أنها الأفضل لك علماً وعملاً... ولي عملاً ومسكناً أبدياً... هناك... نلتقي في الغربة حيث لم نستطع أن نلتقي في الوطن... وكأننا وطنٌ للغربة...

نلتقي في المكان البعيد ولو لبعض دقائق يومياً لتعد لي قهوة اللجوء الشديدة المرار، ولا أعلم هل اشتهي قهوتك أم اشتهي ابتسامتك أم هي الطلة التي تستقبلني بها كلما دخلت باب المقهى... تلك الابتسامة التي تذكرني بوطني الذي هجرته منذ عقود وهجرني منذ ولادتي.

كل يوم كنت أعتاد الجلوس على الكرسي نفسه وأمام الطاولة عينها والتي تطل على أجمل مناظر المدينة، ولكنني لم أكن أهوى المكان بقدر ما كنت أهوى الاقتراب منك كثيراً لدرجة أنني كنت أرغب بالالتصاق بك... لكن شرقيةٌ أنا، وعلى الرغم من تمردي يبقى فيّ جزءٌ يخاف نظرات الناس، لذلك كنت أجلس في المكان عينه كل يوم وأتحجج بقراءة الصحيفة التي تجلبها لي وأرتشف منك نظرة ومن فنجان القهوة رشفة، ثم أكتب في دفتري شيئاً من الرواية التي أكتبها منذ فترة، منذ أن قررت أن أعاود الكتابة وأنت بطل الرواية.

لقد عدت إلى ممارسة هوايتي واحترافي والفضل يعود لك.

مع الأيام عرفت أيام راحتك الأسبوعية فأصبحت أتحاشى المكان وأنت لست فيه، فالمكان لا يستهويني وهو خالٍ منك، والقهوة لا تعنيني وهي خالية منك، ليس فيها ما يثير اهتماماتي وأنت خارج المكان والوقت وخارج القهوة وخارج القلب.

كنت في بعض الأيام أصل لأجد أحدهم أحتل الطاولة واستولى عليها فيستولي علي الحزن والكآبة وأصاب بالهزيمة فيخدمني غيرك وأنت لا تمنحني من كل الوقت إلاّ ابتسامة بعيدة وحزينة فأترك القهوة كما هي وأترك الجريدة كما هي وأدفع الفاتورة وأترك قدمي تسابق الريح وتسابق حزني بأن قهوتي في ذلك الصباح خالية منك.

وفي صباح اليوم التالي أقرر أن أصل مبكرة لكي أخذ المكان الذي يليق بك سريعاً قبل أن يحتله الغير وهناك أمارس طقوسي اليومية من عشق وغرام بصمت كأنني في معبدٍ وأنت الإله...

نعم بجسدك وطلتك أنت تشبه إلهاً من آلهة الإغريق... أنت كأحد تلك التماثيل الممشوقة والوسيمة والممتلئة قوة وكأن الحياة تكاد تدب فيها بمجرد إعجابك بها...

آهٍ منك.. فأنت أعدتني إلى الكتابة والكآبة... حتى أصبح القلم يسرع الخطوات على ورق أبيض يلتهم الحبر التهاماً... فقط لأنك تعد قهوتي وتتحرك أمامي كوردة جورية تحركها نسمات هواء صباحية بكل رشاقة فتنثر عطرها هنا وهناك وتملأ حديقة قلبي بأجمل الصباحات...

آهٍ، أي الطرق أسهل وصلاً إليك؟ أي الوسائل أسهل بالتقرب منك؟

آهٍ، لو أعلم... آهٍ لو أدري؟

آهٍ لو أملك حلاً لمعضلتي... آه لو كنت تبادلني مشكلتي نفسها...!

مشكلتي... بالنسبة إليك فنجان القهوة الذي تعده لي كل صباح؟
مشكلتي بعض النظرات الخاطفة الخجولة مني وأنت منهمك في العمل بين طاولة وأخرى؟ آه كم أجن عندما أراك تخدم طاولة تمتلئ بالفتيات الجذابات الصغيرات بالعمر واللواتي يتهامسن عندما تلتفت وتبتعد عنهن... إنهن مثلي متيماتٌ بك، ولكنهن أجمل مني ويافعات... لسن مثلي... فأنا أكبرك سناً، وأُخفي شعري الأبيض بالكثير من الصباغ وأُخفي الكثير من التجاعيد بمساحيق وألوان... وكأنني أضع أقنعةً لتعشق مظهري لكني... لا أدري!
العل أسهل الطرق إليك بقشيشا سخياً أدفعه من دون ندم على الرغم من حاجتي الماسة إليه، أم أنه رشوة أدفعها لأصل إليك، ولعل الوصول إليك وصولاً لقلبك! ما أتعسني أدفع بقشيشا كرشوة لأصل إليك! ما أرخص الوصول إليك وما أصعب الحصول عليك!

وذات يومٍ ماطر وصلت متأخرة ولم يكن من أيام راحتك وجلست أنتظرك تأتي نحوي... جالباً معك قهوتي والصحيفة وقبلهما عطرك وابتسامتك وطلتك...

انتظرت ولم تأتِ!

جلست أنتظر ابتسامتك الجارفة كسيل نهرٍ هادر، ومشيتك السريعة كأعاصير مجنونة تدب في داخلي تقلب زوابعها كل مكنوناتي ودواخلي لترمي إلي فنجان قهوةٍ وجريدةٍ وتمنحني القدرة على الكتابة في صفحات رواية لا أرغب أن أنهيها بسرعة...

وها أنا أنتظرك بفارغ الصبر...ولم تأتِ!

أين أنت يا فارسي؟ أين أنت يا بطل روايتي؟ أين أنت يا قصيدة شعري... وهمي وسعادتي؟
أين أنت يا سجني وحريتي؟ يا قلمي وممحاتي؟... أين أنت يا مولدي وموتي؟ أين أنت يا سببي ويا كوني؟
ها أنا انتظرك وكلي شوق لا للقهوة ولا للجريدة بل لرجلٍ يمتلئ جسمي عشقاً منه... يمتلئ يومي كله به...
انتظرتك ولم تأتِ!

ثم جاء شابٌ آخر يحمل دفتره والقلم وفنجان القهوة وابتسامة شعرت أنها صرخة، أنها صفعة... أو أنها النهاية...

قال لي: " أعتذر سيدتي، فزميلي الذي اعتاد خدمتكِ ترك العمل هنا!" وكم كانت صدمتي.

"ترك العمل هنا!!! لماذا؟"

"سيتزوج اليوم"

وكأن بركاناً قد ثار وجن جنونه في قلبي...

قلبي الذي كان يثور حباً وغراماً طيلة شهور قد خمد في داخلي وانهار إلى داخله...

وحدث أن ساد الصمت والهدوء في ثانية واحدة وكأنها وقت من دهر.... وما عدت أستطيع الكلام.

أما هذا الشاب فقال بحزن: " لقد كان يعاني جداً وما عاد يستطيع تحمل تكاليف الإقامة والدراسة هنا فقرر الزواج من السيدة التي يستأجر عندها غرفة، فأمنت له بذلك السكن المجاني ووظيفة أخرى لا أعلم أين".

لم أقوَ على الرد ...

" لكنه يا سيدتي طلب مني أن أخدمك طالما تترددين على هذا المقهى وطلب مني أن أعطيكِ هذه الورقة". وسلمني الورقة وذهب أما أنا فأصبحت سداً لدموعٍ تتجمع بقوة خلف عيوني ورجفات قلبي ويدي تمنعني من السيطرة على ورقة صغيرة أحاول فتحها بصعوبة وعندما استطعت فتحها قرأت فيها: " سيدتي الراقية... على الرغم من أنني لا أعلم اسمكِ، لكنكِ يا سيدتي كنتِ كالملاك الحارس الذي أرسله الله إليّ لإنقاذي خلال المدة السابقة، فقد كان البقشيش السخي الذي تتركينه لي كريماً جداً لدرجة جعلني أواصل الحياة هنا، أما وقد تركت العمل وسأتزوج من سيدة بعمر أمي لأستطيع إكمال دراستي فإنني لنْ أنسى كرمك وقد طلبت من صديقي أن يخدمكِ أفضل مني وشكراً لكرمك"... وانتهت الرسالة.

وانهار السد الذي حبس الدموع لفترة وجيزة... وشعرت أن الدموع ستغرقني وأن عيون من حولي ستتبلل بدموعي. فوضعت الورقة على الطاولة وأخرجت بقشيشا جيداً من حقيبتي وتركته على الطاولة مع فنجان القهوة الممتلئ من حزني وقطرات دموعي... تلك القهوة التي ليست منك... وخرجت ولم أعد إلى هناك ثانية.

على تلك الطاولة تركت فنجان القهوة الخالي منك والصحيفة وورقة بخط يدك وقلب محطم... وهربت لاجئة إلى مكان آخر فأنا دوماً سيدة تحب اللجوء... لا وطن لها ولا قلب.

مقهى الحب

جلست يوماً في مقهى قيل لي إنني هناك سأجد الحب...
جلست وعيناي تستكشفان المكان والإنسان، طلبت فنجاناً كبيراً من القهوة لكي آخذ وقتي وأنا أنتظر الحب... فنجاناً كبيراً لكي يتسع للحب... ولكي أعطيه وقتاً ليجدني..
أنا الجالس على كرسي الانتظار...
وبقيت هكذا على انتظار... على ذلك الكرسي الخشبي أحتسي قهوتي ببطء وما أن أنهيتها حتى تذكرت أنني نسيت قلبي في مكان آخر...
هناك كان... ولذلك لنْ يجد الحبّ هنا إلاّ بقايا إنسان.

لماذا القهوة دائماً؟

سألني صديق: لماذا القهوة دائماً؟
فقلت له: لأن القهوة للرجل كالمرأة والقهوة للمرأة كالرجل... وعندما أكتب عن القهوة فكأنني أكتب عن أنثاي الخاصة... معشوقتي الخاصة.
فقال لي: إذا هي تحل محلها!
قلت له: لا... لا تحل القهوة مكان المحبوب أبداً، بل القهوة رمز للمحبوب ورابط معه.
فقال لي: حبيبتك سمراء!
قلت له: ليست كل القهوة سمراء، فالقهوة إما سمراء وإما شقراء وإما ما بينهما... والقهوة بن يحتسيها البعض

مع الهيل والبعض لا، هي تلك القهوة التي قال عنها محمود درويش " القهوة لا تُشرب على عجل، القهوة أخت الوقت تُحْتَسى على مهل، القهوة صوت المذاق، صوت الرائحة، القهوة تأمّل وتغلغل في النفس وفي الذكريات" لكن للأسف يحتسيها البعض سريعاً... فبعض الرجال يحتسون النساء سريعاً.

فقال لي: وكيف السكر معها؟

قلت له: بعضهم يحبها شديدة الحلاوة وبعضهم يحبها متوسطة وبعضهم يحبها قليلة السكر والبعض يحبها من دون إضافات، قهوة بطعم القهوة.

فقال لي: وأنت؟

قلت له: أنا أُحبُّها قليلة السكر ولا أحبُّها متطرفة، أُحبُّها أن تغلي ببطء من دون أن تفقد وجهها وأُحبُّها سيدة في فنجان أبيض من دون أن تفقد ترابطها وحسنها. أُحبُّ أن أرشفها ببطء وأن أستمتع بها إلى حد الثمالة... أثملت يوماً من فنجان القهوة؟

فضحك وقال: لا.

قلت له: إذا أنت لم تعشق أنثاك ولم تحتسِ القهوة.

قهوة مع غريب

نجلس مع منْ نعرفهم ونحاول أن نخرج ما في قلوبنا فننصدم بعدم قبولهم لدواخلنا بل هم مرتاحون للتمثيل الذي نمارسه عليهم...

بينما نخاف الجلوس مع غريب هو مثلنا يشتهي الجلوس معنا لنحتسي معاً القهوة والنرجيلة ونتحدث عن حقيقتنا ومشاعرنا بلا تحفظ ولا تكلف ولنفترق بعدها من دون أن نبوح بأسرارهم... فالغرباء دوماً إلى رحيل وكذلك أسرارنا التي نخاف منها دوماً ترحل معهم...

سألته كم ملعقة سكر تريد؟ فأجابني: أُحبُّها مُرّة... فأجبته: وأنا كذلك، أُحبُّ قهوتي مُرّة. وفي الحقيقة كذبت فأنا أُحبُّها وسط ولكنه كشف كذبي وقال لي: ألم نتفق على قول الحقيقة الكاملة! فلا تتكلف أطلب قهوتك كما تشاء.

قصة فنجان

قهوتي فنجان من حرية، بنه أبيض، وحرارته من دفء الإنسانية وسكره بياض طفلٍ فقير وسواده من امرأة أفريقية تكد هذا الصباح ووجه الفنجان يقول صباحك حرية...

لارتشف فنجاني الصباحي لا بد لي أن أجلس على كرسي على حافة جبلٍ وكل يوم وأنا أشربها أقول: لعلي سأسقط هذا اليوم...

آه.... كم أعشق فنجان القهوة من يديها.

أشعر يومياً أنه الأول الذي أتذوق والأخير الذي سأشرب...

أشعر به دفئاً يحيط بي شتاءً ونبضًا مع قلبي وجزءًا من مكنونات دمي.

هذا الشعور لا يمكن أن يكون إلاّ بفنجان القهوة الذي تعده هي لي.

ابتسامتها وعيناها حينما تقدم لي القهوة تشعرني أنني اجلس في مقهى رومانسي فتتقدم ملكة جمال وتضع أمامي فنجان القهوة فأذوب مع حبات السكر في حبها في فنجان حب

وأتجادل مع قلمي جدالاً صاخباً في من سيكتب عشقاً فيها!!

أنا الذي شربت قهوتها أم هو الذي ينقل لذتي في قهوتها ولذتي فيها؟

قهوتي الصباحية معها...لها طعم آخر.

خذوا القهوة من أيدي الجميلات فهي كالقبلة متى أُخذت تتحقق الانتصارات....

آه كم أعطش لتلك اللحظات ولا شيء يروي غليلي... لا شيء إلاّ فنجان قهوتي الصباحي تذكرني بقطرات الندى التي كنت ارشفها سراً من خدودها، قطرات الندى التي جَمعتها لي عند الفجر وصنعت لي بها فنجان القهوة أشربه بعد ليلةٍ طويلة من احتساء حبها لدرجة الثمالة...

كل صباح... نجلس معاً نحتسي قهوتنا، فشربت هي من فنجانها واحتسيت أنا من عينيها،

وأنا حاضرٌ لا ينتهي فنجاني وهي في غيابٍ تنهي قهوتها بسرعة تريد الرحيل... وما برحت مكانها! سألتها: لماذا انتِ ها هنا؟ فأجابت قهوتي معك لم تنتهِ بعد! ومنذ ذلك الحين وطقوس قهوتنا لا تنتهي ولا تتسع لفنجانين.

سألتني: لماذا تشرب القهوة معي فقط؟ ألا تجاملني ببعض العصير أو الشاي؟

فقلت لها: حينما أحتسي القهوة معكِ فأنا أُحبُّ أن أقضي معكِ الوقت الطويل، فالقهوة أحتسيها مع من أُحبّ لفترة طويلة، أما العصير فنشربه سريعاً ونمضي...

القهوة ساخنة كعلاقة الحب، والعصير بارد لا ينفع إلاّ لعلاقة باردة تمر مرور الكرام...

وأنا معكِ لا أحب أن يمضي الوقت سريعاً ولا أحبّها علاقة عابرة باردة تمر مرور الكرام ... فأنا أُحبّكِ كما يُحبّ التراب الوطن وكما تُحبّ الأرض حبات المطر.

أُحبُّ فنجاني كاملاً... فالمرأة التي تقدم نصف فنجان القهوة لرجل...هي نصف امرأة ولا تعشق رجلها ... وتلك التي تقدمه كاملاً هي أنثى بكل " تفاصيلها المعلنة والسرية"... تلك التفاصيل التي لا يعلمها إلا العُشّاق والشعراء.

ثم ساد الصمت بيننا...لماذا هذا الصمت والسكوت؟ ألعل هيامي فيكِ لم يعجبك؟ أم المكان؟

أم كلامي المطول في لا شيء فقط لكي أقضي معك أطول وقت ممكن؟

أم أن الملل كان ثالثنا فاستأنستِ جلسته ونسيت أنني هنا... لقد استمتعت بالملل.

أمَّا أنا فقد استمتعت سيجارتي بأحاديثي كما استمتعت بشفاهي التي لم تستمتعي أنتِ بها...

ورغم احتراقها السريع لكنها استأنست بي وبالقهوة فكنا ثلاثتنا أنا وسيجارتي وقهوتي أجمل رفقة...

وأنتِ الرابع الذي أعشق...

معظم الناس يتغزلون بالسهر والليل... وأنا أغازل الصباح وأعشق ساعاته الأولى مع فنجان القهوة الذي تعدينه لي...

ومر اليوم كاملاً... وحّلَ المساء... إني في غياهب المساء معلق هناك بين خط النهار وخط الليل... وكأنني على خط معركة...

أشرب قهوتي ونصفي حيران ونصفي الآخر يبحث عن جواب...

وأنا مستلقٍ تحت ظل شاهد قبر كتب عليه:

"هنا كانت شجرة"... وعلى ذمة الراوي فإن القبر في مكان ما بين فنجان قهوة وكتاب وقلب.

حب مرساة

أُحبُّكِ... بعض حروف أكتبها بحبري السري، فوق جداريات رمال الشاطئ وفوق سفوح جبال البحر المالح وأمواجه المبعثرة وزبده الثائر!

أتعلمين لماذا؟ لكي لا يقرأ أحد ولكي لا يعلم أحد...

همستُ في اذن المرساة، أنني أحبّكِ، فإنها على رحيل مع سفن ستذهب...فلنْ تفشي أسراري.

متى جاء المساء

ويأتي المساء مشبعاً بغبار الألم فيطرق باب العين التي ترحب به بسيل من الدمع وتقول له مرحبا بك لقد افتقدتك منذ زمن...

هذا المساء طرق باب قلبي هوى قد أخلى المكان لوقت طويل...

الأمواج المتكسرة

تختفي خلف أمواج هذا البحر الكبير كثير من الابتسامات التي تتكسر على الشاطئ...
هناك على الشاطئ كنت أحتسي قهوتي وسيجارتي وأمتص بقاياها بصعوبة بالغة وأنا أنتظر موجة واحدة لا تتكسر كي تكسر الخيبات التي في داخلي...ولم تأتِ.

سيل صحراء

وجع بحجم الصحراء يخترقه الحب كسيلٍ هدير فيثير الفوضى ويقلب المكان ويرحل ولا يترك وراءه إلاّ ارتواء قليلاً يلحقه عطشٌ شديد.

قصة النقاط

الخط المستقيم هو أن تبدأ بنقطة وتنتهي الأمور حيث اللانهاية... هناك لا تجد نهاية للنقاط، أما الخط المتعرج فهو أن تبحث عن نقطة لك وسط لا نقط وتخاف أن تسقط عند آخر نقطة لك، عن ماذا أتحدث؟
أنها آخر النقاط في زجاجة المشروب ولا أريد أن تذهب هدراً.

كيف؟

كيف أنساك وأنت في دمي الداء والدواء.
سأحاول...وإن احتاج العمر كله أن أحاول...وإن متُ وأنا أحاول.

بلا تناغم

هو يقول لها: أُحبّكِ
هي تقول له: لا تتركني...
فأي تناغم بينهما وهما لا يفهمان بعضهما.

خذلان

لم يخذلني أحد قط كما أنا خذلت نفسي... ولم يكن أحد غريب عني كما أنا غريب عن ذاتي... ولم أجد الوقت الكافي لأبحث عن نفسي لكنني وجدت الكثير من الوقت لأقنع نفسي أنها جزء مني.

السر

سأبوح لهذا الزمان بسر... سأهمسه في أذنه وأقوله له وأنا أعلم أنه يصمُ آذانه عني وأنه لا يرغب بسماع أحاديثي... سأقول له ما توقفت عن البوح به يوم أتقنت الكلام.

مهب ريح

أنا في مهب ريح.

حماقات

أنتِ كل حماقاتي فإن تخليت عنها تخليت عنكِ، لذلك رضيت بحماقاتي كي لا تبتعدي عني.

تبعية

سألتني: "أين أنت منه؟ "
فقلت لها: "لقد شطبت اسمي من دفاتركم الطائفية وأوراقكم المهترئة وصحفكم الصفراء".
ثم وقفت على قدمي وأطفأت سيجارتي في منفضة التاريخ ورميت لها صكوك غفراني وقلت: "ما عدت أرى نفسي معكم...ولت أيام التبعية"... ورحلت.

حقيقة وخيال

وكأنه أعجبكِ خيالي وأنا هنا... وكأنني أُعجبتُ بكِ وأنتِ من نسج خيالي.

الحب المباع

حتى الحب نبحث عنه في الأسواق معلباً... مجففاً... يباع على رفوف المتاجر! على " بسطةٍ " في الشوارع... وحتى أحياناً يُعْرض مجاناً...

لم يعد طازجاً...
البعض منا يبحث عنه رخيصاً على " قد الحال" فلا يهتم بالنوعية والجودة...
والبعض الآخر يبحث عنه صناعة " مشهود لها بالجودة " فلا يهتم بالسعر ولا بالتكاليف.
الحُبّ صناعة في عصرنا الحديث.

العصفورة

تلك العصفورة التي تحوم فوق بيتنا وتتنقل بين سلك الهاتف وسلك الكهرباء ومن غصن شجرة الليمون إلى غصن الياسمينة ما لي أراها كأنها بائعة هوى تتنقل بين الرجال؟
أم أن الجوع أضناها والعطش أنهكها فأخذتْ في رغبةٍ منها للحياة تتنقل بين هذا وذاك وتقفز وتزقزق عساها تجد على شباك البيت أو أطرافه... هنا أو هناك قليلاً من خبز ناشف وماء يسيل من إناء ما.
إني أيتها العصفورة الجميلة أعشق العصافير الحرة التي تطير طرباً وحباً بالحياة
ولا تستهويني العصافير التي تستجدي خبزاً لتستمر بالحياة...
استجدي حباً لتسمني بالحياة...

حرب فاشلة

كم مرة عليَّ أنْ أقولَ أُحُبُّكِ...وكل مرة أعلم أنْ كلمتي ستسقط قبل أنْ تهاجم حصونكِ.

القلب

لا يغرك سيدتي خفقان القلب... إنها مجرد حركة وهمية لاستدراج اهتمامك.
ينفعل أحياناً فتدب فيه حركة سريعة بخاصة عندما يسمع صوتكِ أو يشم رائحة عطركِ أو يراكِ آتية من بعيد، وأحياناً تخف تحركاته وعبثه عندما تبتعدين أو لا تكونين حيث أكون.
وعندما تتأخرين عن لقاء يدب فيه الفزع وتتبعثر حركاته وتختل خفقاته إلى درجة أشعر فيها أنه على وشك الانهيار.
فلا يغرك سيدتي أنه على قيد الحياة لأنه يتوقف كثيراً ولا يتذكر أن ينبض إلا عند الأمل باللقاء أو عند ذكرى لقاء.

أقداح

هذه الكأس التي تسكرني...ما بالي أظنها أنتِ؟
كل يوم أستفيق من النوم ولكنني لا أصحو...أسير في دربي كالسكران ولكنني لم أشرب...
آهٍ! أظنه أنتِ...أنتِ السبب.
كم من الوقت أحتاج لأسكب في قدح الحياة شيئاً من خمر الحب أرتوي به كل دقيقة بروية وبلا سرعة... أن أخذ وقتي بالشراب إلى درجة الثمالة وأن أسكر بضحكاتها وأن أهذي بسعادتها...هذه الكأس التي تسكرني...أنها أنتِ!
بين كأس الخمر وبريق عينيها تحالف معلن والهدف أنا...

الحزن

إن الاحزان تتراكم مثل الثلج ولا تذوب أبداً.
إن الاحزان أشجارٌ تنبت في داخلنا وتحيا معنا وتموت معنا... نحن نموت حزناً وهي تموت واقفة...
كم مرة قَلَمْت أحزاني فعادت أغصانها تخنقني... الحزن لا ينفع معه تقليم ولا قطع... أشجار الحزن قوية لدرجة أنها لا تموت إلاّ معنا.
الحزن ليس عيباً ولا نقصاً... الحزن حالة إنسانية من العيب الاستهزاء بها.
ومهما حاولت خنق الحزن خلف قناعٍ من الفرح فإن الحزن يتأمر ويظهر خلف الأقنعة... القِناع الذي نظهره للناس هو واحد يستتر خلفه العديد من الأقنعة والدروع التي نحبس أنفسنا داخلها لكي لا تنكشف عورات ضعفنا للناس وأكثر العورات تأمراً الخوف وأكثرها قسوةً الحزن...
خلف هذه الأقنعة كائن حي قد انتحر أو نُحر .... وهذا الكائن الحي الذي فينا اختفى والكائن الروتيني الخالي من المشاعر قد ظهر... فنحن وسط هذا الزحام من الأقنعة لسنا سوى أشياء ناطقة... أشياء تأكل وتضاجع أزواجها وتعمل وتنام بلا هدف ... بلا معنى ... بلا حياة...
هل أنا... أنا؟ أم أنا صورة طبق الأصل عني؟
احترت فيما أكون...وهل أقنعتي تناسب ذوقي
نظن أنفسنا الوحيدين في حزننا... في ألمنا... لكن نكتشف أننا نشبه كثيرين في أحزانهم وألمهم وحتى في

شكلهم وهيئتهم وجوعهم وشهواتهم وأحلامهم... متشابهين في كل شيء حتى في الأقنعة.
نحن لسنا إلاّ كذبة... كثير منا يكذبون ليتجاوزوا عن ألمهم وجراحهم لأن الحقيقة متى أصابت الألم تفتح الجروح التي التصقت والتأمت بصعوبة فتعود تنزف من جديد...
فإذا رغبتم بالراحة فخذوا قسطاً من نوم يطول لسنين... أو لنتمرد. إن التمرد لمرة واحدة في الحياة كفيل بإعادة النفس والروح لنا فما بالك بتمرد يومي.

قطف زهرة

أخر مرة قرأت زهرة كانت حين نِمتُ على صدر حبيبتي... وعندما رحلت قطفت الزهرة... بعدها لم يعد للزهور منبت ولا رائحة ولا لون ولا منظر.

إنتصاراتي

كم مرة سكرتُ على صدرها وكلما أصحو من سكرتي أذهب وأخبر أصدقائي بأنني كنت عندها... فتعاتبني وتقول: لِمَ أخبرت الغوغاء عني؟ فقلتُ لها: ألا يُخبر الجندي عن انتصاراته للوطن؟

عائدٌ إلى قلبي

ثلثا قلبي يعانيان من الصحراء والثلث الباقي في طريقه إلى التصحر، وعلى الرغم من محاولاتي أن أزرع

أشجارًا كثيرة لمنع التصحر لكن كل محاولاتي باءت بالفشل والسبب أنني أحببت في ظروفٍ قاهرة...
عائدٌ أنا إلى قلبي فقد مللت اللجوء إلى قلوب النساء...
عائدٌ إلى قلبي لأني أكتفيت وجع البحث عن انتماء.

القلب والعقل

اجتمع القلب والعقل معاً وأخذا يتناقشان من منهما أهم من الآخر.
قال القلب: أنا الروح والحب والمشاعر فأنا أهم منك،
فقال العقل: أنا الفهم والضمير والفكر فأنا أهم منك.
واختلفا وتشاجرا وقرر كل منهما أن يستقل بنفسه استقلالا ذاتياً ومن وقتها وأنا صاحب رأيين: رأي بمعنى ورأي بعواطف.

أخاف الخسارة

أريد أن أقول شيئاً وكلما أردت قوله أتوقف مخافة أن أخسر حضوركِ...
التبس الامر علي، فهل أقول لكِ أحبّكِ؟ أم أكتفي بالصمت والبقاء قريبا منكِ!
أمستعد أنا للصراع والخسارة لأعلن الحب؟ أم لأجل عينيكِ أرضى بالبقاء خانعاً كسيراً وأسيراً فقط لئلا أخسر البقاء معكِ.
أنا مجرد كوكبٍ يسير في محيطكِ...وغارقٌ به. وكم كان بودي أن أكون ولو شعلة في مركزية شمسكِ احترق كل لحظة في حياتي فقط لأكون شيئاً منكِ، لأكون شيئاً لكِ.

مدار حول الحب

" الحُّبُ كالشمس إذا اقتربت منهُ كثيراً يحِرقكَ، وإذا ابتعدتَ عنهُ كثيراً تتجمد، لذلك يجب أن تختار لك مداراً حول الحب".
ديوان " ليتني – يوميات عاشق غريب" ٢٠١٤

قلوبنا

سأل رجلٌ إنساناً حكيماً وقال له: " ما هي قلوبنا؟"، فقال له: " قلوبنا صناديق موتى لا روح فيها... فكلما دقت فإنها تدق حزناً وعندما تتوقف نرتاح الابدية".

المقلدون

بعض الطيور أتعبها الطيران فتوقفت عنه في يوم ما... فأصبحت أجنحتها ضعيفة ولا تحمل من الطيور إلاّ الاسم وما عادت تحلق.
بعض الطيور أتعبها الغناء فتوقفت عنه في يوما ما... فأصبحت أصواتها خشنة وغليظة وتقلد الحيوانات الاخرى بأصواتها وندمت على فعلتها كثيراً.
بعض البشر مقلدون أتعبهم واقعهم لذلك هم يقلدون الآخرين وندموا على فعلتهم جداً.

المركب الخاطئ

كل مرة أفقد ذاكرتي أعلم يقيناً أنني فقدت إنسانيتي وأنني كومة لحم وعظم تمشي بلا عقل، تتقاذفها طرق الصد والبعد، تتلاشى بين رد وأخذ، وأسقط عند كل حدبٍ وصوب...
وكل مرة تعود لي ذاكرتي أفقد صوابي ويجن جنوني... وتتقاذفني أحاسيسُ وحزن، وألمٌ وبؤس، وأغرق في محيط المشاعر بعد أن اكتشف أنني ركبت للمرة الألف المركب الخطأ... فأين مينائي وقد ركبت القلب الخطأ.

عبور ومرور

وأمر من أمامها وهي تنتظر...
أو نتلاقى في الطّريق... فتتلاحم أعيننا ولا شيء إلا العيون...
نقول من خلالها ما لا يقال... ما لا يباح... ما لا نريده من أعيننا أن تفضحه إذا مر علينا شخصٌ ما
فلا يرد الصباح إلاّ صمت العيون وخفقان القلوب وصمت يخاف أن يكسر جليد المجهول.
نتلاقى في بعض الصباحات... أحمل فيها لكِ باقة ورد، عطر، أو رسالة غرام... لكنني أكتشف أنني غير مستعد للقاء... وأنني أتيت هذا الصباح خالي الوفاض... كالأمس وأول أمس... كما في كل نهار.
كم أرغب أن أقف في الطّريق ومعي وردة أهديها لكِ لكن شرقنا يُضّيق عليَّ الخناق والمارة سيفهمون عشقنا حراماً وانتظاري حراماً ووقوفي في الطّريق عملاً كعمل الصبيان...

أعلم أن لا تخطيط للقائنا ولا موعد محدداً، إنها الصدفة التي تلعب دوماً في لقاء لا يزيد عن ثوانٍ تلتحم فيه شمس الصباح مع ندى الحب وعشق الطلّة وينتهي موعد أعيننا سريعاً قبل أن أنطق لكِ صباحُكِ سُكر وقبل أن تنطقي لي صباحُكَ أحلى.

حطام

كم مرة تعرَّضتُ فيها لهزة عنيفة ومجموعة ارتدادات وفي كل مرة أخرج منها كمجموعة حطام.

وجبة طعام

كم مرة قضمت " بصلة" وأنا أقنع نفسي أنها تفاحة فما جاءني منها إلاّ دموع العين والطرد من الجنة!!
وكم من مرة قمت بشواء " تفاحة" وأنا أقنع نفسي أنها شرائح بصل فأفسدت وجبتي.
تقديري للأمور يخيب كثيراً ولكن السبب أنني أُحسن الظن في من يجب أن أحذر منه وأحذر ممن يجب أن آتمنَ جانبه.

تزاحم

في المكان الذي لا يتسع لنفسه يكاد يتزاحم الجميع... وهناك حيث يكثر النقاد الانانيون الممتلئون بالغرور، تحاول فتح نافذة لهم فيتهمونك بأنك أدخلت الريح الباردة للمكان!

ألستم تقبعون هنا منذ القديم؟ ألا تريدون أن تغسلوا أنفسكم من هذا الأنين؟
من هذا الغبار الذي يتراكم عليكم منذ سنين؟ ألا تريدون الرحيل عن مآسيكم وبؤسكم والموت الذي يسكن أطرافكم؟
فيقولون: بلى ولكن ليس الآن...
آهٍ...ليس الثلج ما يشعرني بالبرد، بل جمود المواقف، ضعف القرار وموت المشاعر...
ليس الثلج ما يفقدني صوابي بل اسوداد القلوب وامتهان الكذب على الذقون ومحاولات تسمى بأنصاف القرارات وبعض المحاولات لاختراع المشاعر ببكاء مصطنع على أطلال من جماجم الآخرين...
ما أنا إلاّ ظل إنسان كان هنا ورحل...ومع ذلك أخاف هذا الظل.
كم من إنسان يلهث وراء ظل لأنه لا يخرج في النهار ليكون له ظله الخاص به...
ولأن ظلي يؤرقني أريد الرحيل إلى مكان لا ازدحام فيه لظلال الآخرين... إنها جهنم... لا ظلال هناك...
الرحيل إلى جهنم أقرب وأهون من الذهاب إلى الجنة ففي جهنم الأرض مجانية بينما في الجنة الاراضي تباع... والظلال تباع... والازدحام حول الانبياء... أكره الظلال وأكره الازدحام...

يتركون إرثاً للجميع

من يتركون خلفهم روايات وأشعاراً ويرحلون من دون أن يتركوا خلفهم مالاً أو جاهاً، أشكركم لأنكم تركتم إرثاً عظيمًا للجميع.

السلام الداخلي

من سكن السلام الداخلي قلبه ونفسه اعتاد أن يغفر للنفس أخطاءها وللناس هفواتها ومن لم يغفر لنفسه وللآخرين فالرب لنْ يغفر له ايضاً.

زهرة

عندما ترون زهرة نمت فوق أكوام الزبالة فلا تشموها بل اشكروها وامتدحوها لأنها نمت وسط هذه الاكوام من المهملات لتقول لكم إن الأمل ينمو وسط الصعاب.

أخطر الناس

سألوا حكيماً: من أخطر الناس؟
فقال: أخطرهم من كانوا يملكون نفوساً بالية وعقولاً فارغة وقلوباً يملأها الصدأ وقد شبك العنكبوت داخلها شباكه.

حياتنا

هي مشاعر من ورق يَسهلُ تمزيقها... وأحاسيس يَسهل العبثُ بها.... وكأنها لعبة عبث بها الزمان بعدما مل منها ثم كسرها ورماها..يكفي استهتاراً بحياتنا أيتها الأيام!

بلا صديق

من منكم بلا صديق فليخترع صديقاً ولا يكن وحيدًا... ألا يفعل الاطفال هذا فيتحدثون إلى اللاشيء ونظنهم مجانين؟ أتعلمون لماذا يخترع الاطفال لهم أصدقاء وهميين؟ لأنهم يشعرون بأمان معهم... من ليس له صديق فليخترع لنفسه صديقًا.

الفصل الرابع
مدن الغبار والسراب

" ماذا على الناس من سكري وعربدتي
ماذا على الناس من كفري وإيماني
ماذا على الناس من قولي لهم : أحد
ربي ، وقولي لهم : ربي له ثان
ماذا على الناس من لهوي ومن عبثي
ماذا على الناس من جهلي وعرفاني
ماذا على الناس من جهلي ومعرفتي
ماذا على الناس من ربحي وخسراني
ماذا على الناس من صفوي ومن كدري
ماذا على الناس إن دهري تحداني
ماذا على الناس من فقري، ومتربتي
ماذا على الناس من ضنّي وإحساني
ماذا على الناس من حبي مكحلة
بين الخرابيش أهواها وتهواني "

مصطفى وهبي التل " عرار"

الفصل الرابع
مدن الغبار والسراب

مدن الغبار والسراب

لفحتنا الشمس وعَلا وجوهنا الغبار وامتلأت صدورنا أحزانًا ونمت بعقولنا الخيالات وطرقنا السراب...

قيود

من قال لكِ إن القيود حديدية
إنها قيود حريرية

أين نعيش؟

سألته: في أي مكانٍ نعيش نحن؟
قال لي: أعتقد أنها جهنم...
قلت له: بل في عين جهنم... هناك لا توجد نار ولكنها تحيط بك.

زرعٌ وحصاد

زرعنا شعيراً وبقينا ننتظر الحصاد ظناً منا أننا سنحصد القمح قريباً... وعندما حان موعد الحصاد حصدنا شعيراً

قليلاً فشتمنا حظنا التاعس... وقلنا: لماذا لم يمنحنا الرب القمح!

خلف الاسوار

خلف أسوار البيوت وخلف أبوابها أسرارٌ لا يعلمها إلاّ أصحابها...
وخلف أسوار المدن يقبع الكثير من أسرارٍ مباحة ووجع وألم وحسرة نُقشت على جدرانها وفوق طُرقاتها وعلى وجوه ساكنيها... فلفحهم غبار الأيام وسكنوا سراب المدن فلا المدن نفسها ولا الناس أنفسهم... إنها أشباه المدن وهم أشباه بشر.

مواطن

المواطن بذرة مغموسة في تراب هذا الوطن فتنبت وتصبح وردة تتلون بألوان تراب الوطن فتصبح أجمل وردة... وردة كُلها أشواك، فإما أن تستنشق رائحتها العطرة وإما أن تجرحك صباح مساء... تشمها أو تقبض عليها بشدة... تحبها وتمنحها من دمع الوطن ماءً تشربها... أو تقطعها فقط لتستمتع بها بعض الوقت!
الوردة إذا ما ذَبُلت يمنحها الوطن حياة من دماء أوصاله ... أو يصبح هذا المواطن جرحاً في الوطن يؤذيه وتدخل منه الشوائب والأمراض.

اسمٌ بلا هوية

كل يوم يبدأ مهمته اليومية صباحاً بجسده النحيل وشكله المخيف وشعره القذر الأشعث وهندامه الممزق يسير مُنحني الظهر على الرغم من أنه في نهاية الأربعين، رأسه أيضاً منحنٍ... ويده اليمنى ممدودة... ولا يعرف أي شيء إلاّ كلمة " شلن"...

إنه من ذاكرة الطفولة... من ذاكرة مادبا... نحن كبرنا وهو بقي على الرغم من أن وجهه كبر وهرم لكنه بقي كما هو...

منذ أن وعيت وأنا ألعب في شوارع وساحات حارتنا، كنت أراه يتجول ويمشي في شوارع محددة لا يتخطاها لكي لا يتوه... كنت أراه كل يوم... صباحاً وحتى في ساعات المساء قبل أن تغيب الشمس... كان يسير بصورة عفوية بلا تخطيط بلا تفكير... يسير باتجاه من يراه لعله يحظى بشلن... هذا الشيء القاسي اللامع الذي يفرح كلما أخذه من إنسان.

كأنه جسد بلا روح... بلا مشاعر... بلا أحاسيس... بلا ألم... بلا هوية... بلا طفولة...

يتحرك بلا هدف كأنه آلة.... لا ابتسامة تعلو وجهه ولا حتى حزن... كان مبرمجاً ليأخذ ما يطلبه من دون أن يفرض نفسه، حتى شكله الذي كان يثير رعب الأطفال وهروب النساء واشمئزاز الكبار... ورائحته... وإلحاحه يستفزك لتنتهي منه في أقرب فرصة.

أحياناً كان يشد بإلحاحه في طلب الشلن فيثير جلبة في الشارع بين همسات وضحكات وصرخات تنادي اسمه

فتريد أن تتخلص منه ومن إلحاحه وما إن تمد يدك إلى المحفظة أو الجيب حتى يبدأ بطقوس الإثارة فتزيد حماسته وكأن تياراً كهربائياً قد صعقه وتتحرك قدميه للأعلى والأسفل فرحا وما أن يأخذ الشلن حتى يبتعد عنك فوراً من دون أي جمل شكر أو أدعية أو الإشادة بكرمك أو أي شيء من طقوس الاذلال الذاتي التي يمارسها الشحاذون الآخرون... وأنت تعلم أنها كلها نفاق في نفاق... أما هذا فكان يبتعد فوراً وكأنه يحافظ على كرامته مع أنك تشك أن لديه قدرة على فهم ما يدور حوله، وأن كل ما يعرفه بالحياة " ياخوك شلن" أو ترديد كلمة " شلن" فقط لا غير.

أحياناً قد يقرأ أفكارك ويعلم أنه لا نية لديك لتمنحه شيئاً فيبتعد عن طريقك وينحني جسده أكثر ويطأطأ رأسه ويحاول أخذ زاوية يعتقد أنك لنْ تراه فيها، فهو يعلم أنك لا تريده في طريقه.. ويتقوقع لعل تقوقعه لا يثير اشمئزازك وتسير أنت في دربك كأنك لا تراه وهو يسير بعد أن تكون تركته خلفك نحو الاتجاه المعاكس من دون أن يثير جلبة ومن دون أن يطلب منك أي شيء.

كنت أتساءل ماذا يفعل بهذه الاموال التي يأخذها من الناس؟ لا ملابسه تغيرت ولا أحواله ولا شكله ولا حياته إلاّ للأسوء، فقال لي أحدهم أن أمه ماتت وهو طفل ووالده وإخوته يضربونه ويطلبون منه الخروج من البيت، ولعل الأموال التي كان يجلبها لهم تلهيهم عنه ليلاً لينام بعد أن يأكل قليلا من خبز قديم يطريه بالقليل من الماء...جسده النحيل جداً يؤكد أنه لم يأكل منذ مدة طويلة جداً أي نوع من اللحوم أو الطعام الطري الساخن.

ماذا فعل الزمان به؟... أين اختفت روحه؟... تلك الطفولة التي سُلِبت منه من أخذها وكيف ولماذا؟...

إني أراه مسجوناً... مقيداً... مسلوب الطفولة... في زمن ما... بعيداً هناك تركه من وجب عليهم حمايته، من وجب عليهم الامساك بيده بشدة ليقودوه نحو الرجولة ولكنهم تركوه هناك مقيداً في العتمة... رجلٌ بعمر الاربعين وجسده كأنه في العاشرة وعقله لا يتجاوز الرابعة، يسير بلا أي هدف بلا أي معين في الشتاء البارد القارس يرتجف خوفاً وبرداً، وفي الحر القاسي فاغراً فاه من جوعٍ قاتل وعطشٍ ذابح.

من هذا الذي له اسم وليس له هوية؟ أسمع صراخ طفله المسجون هناك...صُراخه يئن كل يوم حتى الأبدية يصرخ أطلقوني لم أفعل شيئاً سيئاً، أغيثوني إني خائف، ساعدوني إنني جائع... هناك تُرِكَ وحيداً حيث البكاء وصرير الاسنان، هناك يبقى بلا هوية للأبدية.

إنه من ذاكرة الطفولة... من ذاكرة مادبا... نحن كبرنا وهو بقي رغم أن وجهه كبر وهرم لكنه بقي كما هو...

أني لك

حَملتُ قلمي وبعضاً من أوراقي وأفكاري وتطلعاتي وأخذت أمشي وأمشي في مدينتي... التي يفترض أنها مدينتي، التي كنت أعتقد انها مدينتي...

مشيت إلى مكانٍ أريد أن أكون فيه وحدي ولا غيركِ أنتِ معي وقلمي ومجموعة من أوراقي وحزني وألمي.... أريدُ أن أكون حيث اللاكون

واللامكان...وحيث أكون أنا وأنتِ مجرد خيال ولو في غير المكان.

مشيت في حاراتٍ وشوارع مشيت فيها آلاف المرات وكأن هذه المرة أدخلها لأول مرة، شوارع حزينة... كئيبة تزدحم بكل شيء لكن معالمها مختفية...

هذا الشارع الذي أمشي فيه الآن مشيت فيه مع السائرين نحمل تابوتاً لمتوفٍ وقلت في نفسي هل من المنطق أنني الآن أحمل في هذا الشارع أوراقي وقلمي... وكأنني أريد أن أذهب باتجاه مقبرتي... أدفن فيها أوراقي وقلمي...

وهناك في ذلك الشارع ومع كل السائرين ما زلت أحلم الحلم عينه أنكِ تسيرين معي وتتبخترين وتتمخترين، وتركضين وتتمهدين، وتقرئين شعراً لنزار قباني...

(أُحبكِ حتى ترتفع السماء
كي أستعيد عافيتي...
وعافية كلماتي
وأخرج من حزام التلوث
الذي يلف قلبي.
حتى أدخل في دين الياسمين
وأدافع عن حضارة الشعر
وزرقة البحر
وأخضرار الغابات
أُريد أن أُحبكِ
حتى أطمئن
أُريد أن أُحبكِ
حتى اتخلص من يباسي
وملوحتي

وتكلس أصابعي
وفراشاتي الملونة
وقدرتي على البكاء)
أهٍ كم تعشقين نزار... عشقته لأجلكِ...
ولكني أسير مع السائرين وأنا الأسير ولا أرى في كل الوجوه التي تسير إلاّ وجهكِ أنتِ!

لا أرى إلاّ آلاف الجسوم ووجهكِ أنتِ!

أيعقل أن كل الوجوه أصبحت تشبهكِ... وأن كل سكان الارض أصبحوا أنتِ؟

أريد أن أنسى وأهرب إلى حيث لا أراكِ... لذلك قررت أن أخرج من المكان وأسير باتجاه اللامكان... هناك وجدت نفسي أسير نحو جبلٍ يحمل التاريخ... تاريخ الخروج، وتاريخ الدخول، وحيث كنا نهرب سوياً... ونلتقي سوياً... كيف وصلتُ إلى هذا المكان البعيد؟ لا أدري... فتفكيري بكِ يجعلني أهذي... يجعلني أبكي... يجعلني أمشي...

لم أشعر أنني متعب إلاّ عندما جلست على تلك الصخرة وحولي تلك الاشجار... هناك حيث كنا نلتقي وحيث كانت الاشجار تخفي ما نريد أن تخفي... هناك كنا نختفي والعالم كله يختفي وننسى أننا من العالم وأننا فيه وبه نختفي...

وأخرجت قلمي وأوراقي أريد أن أكتب شيئاً... فوجدت أن لا شيء يصلح للكتابة، فوضعت رأسي على المكان حيث كنتِ تجلسين وغفوت أحلم أنكِ معي وأنك تعبثين بشعري وتقولين لي...إني لكِ.

مرٌ وبعضٌ من ملوحة

هل للمدن طعم؟ أنأكلها باستمتاع ونمضغها بمحبة؟ أم نجترعها كدواء علقم نبتلعه بلعاً سريعاً لكي لا نشعر بالطعم... وينتفض جسدنا عند البلع لشدة المرارة ورغبة في التقيؤ؟...

أحياناً لا أستطعمك أيتها المدينة الجاثمة على صدر أنثى ثدياها خاليان من الحليب، فاعذريني إن دخلتكِ كغريب وخرجت منكِ كغريب...دخلتكِ جائعاً وخرجت منكِ جائعاً وعطشان... وعندما حاولت أن أكلكِ وجدت طعمكِ مرًّا وبعضاً من ملوحة.

سيدي المحقق

وبعد أن طال التعذيب والتشويه والضرب كل جسدي سألني المحقق: من يبيض أيها المحترم؟ الديك أم الدجاجة؟

فقلت له: الديك يا سيدي... الديك...

فقال لي: إذاً ستوقع على الاعتراف.

فقلت له: لقد قطعت أصابعي سيدي المحقق فكيف سأوقع؟

معتقل

كانت أمامي مجموعة كبيرة من الاوراق مكتوب فيها أشياء توجيهية ومجموعة كتب منها كتب مقدسة، فقال لي: ممنوع عليك الكتابة وممنوع عليك القراءة إلاّ ما نقول لك ما تكتب وما تقرأ. مطلوب منك أن تكون مواطناً صالحاً تأكل ما أمامك من الصحف فقط، تنهيها من دون أن تطلب المزيد ومن دون أن تترك خلفك شيئاً وأن تشكر الله وتشكر الزعيم. فبقيت صامتاً وأنا فقط أنظر إليه من بعيد وبيني وبينه الطاولة التي نثر عليها الصحف والأوراق والكتب وأنا جالسٌ لا حول لي ولا قوة مقيد في المكان والزمان وهو هناك يقف متأهباً لمزيد من التعذيب. كانت الغرفة ضيقة جداً كصندوق لا يتسع إلاّ لكلينا والطاولة ولعينيه الجاحظتين اللتين ترسلان لي أوامرهما بشدة وجدية تجعل قلب الإنسان يخرج من مكانه خوفاً ورعباً وعلى الرغم من ذلك لم أنطق ببنت شفة، فانتظر جوابي وعندما طال الانتظار حرك بيده طرف سترته فظهر جزء من مسدسه الاسود الضخم المختفي معظمه تحت بنطاله وحزامه الاسود وقال مجدداً: مفهوم؟ فبقيت صامتاً، فقال لي وهو يتحرك اتجاهي وأنا أنظر إليه: ألن تقول شيئاً؟ ألن تفعل شيئاً؟ وجلس على الطاولة وقد ضربت ركبة قدمه اليمنى صدري بعنف ومسك إحدى الاوراق وقال لي: اقرأ. فمسكتها بصعوبة لان جسده كان يلامس جسدي ومن النظرة الاولى علمت أنها ورقة تحتوي على موعظة دينية فأخذت أقرأ الكلمات بالعكس أما هو فنظر إلي باستغراب ثم أشاح بنظره عني ونظر للورقة وقال:

ما هذا المكتوب؟ وعندما دقق نظره في الورقة علم أنني اقرأ بالمقلوب فحمل كتاباً من الكتب التي كانت على الطاولة وضرب به رأسي بشدة افقدني توازني وسقطت الورقة من يدي على الارض وشعرت بدوار شديد فأمسكت الطاولة لعل الدوار يذهب والتوازن يعود، أما هو فقام عن الطاولة وأمرني بأن أنحني وألتقط الورقة عن الارض فانحنيت لأتناولها فتعمد أن يضع حذاءه الاسود اللامع على الورقة فاصبح فجأة أمام عيني ولم أستطع نزعها عن الارض وقال: اقرأ... فقرأت الكلمات كلمة كلمة من أعلى إلى أسفل ثم شعرت بشي قوي يهوي على رأسي وغبت عن الوعي ولم أغب عن الحياة.

على قيد ورقة

وبينما المدن والقرى تقصف وتهدم فوق رؤوس ساكنيها أصبحنا نسرق الحياة في أوقات هدوء العواصف... بعضنا يذهب لرزقه والبعض يبحث وسط الحطام والبيوت المنهارة عن قريب له يبكيه يريد أن يدفنه بشكل لائق والبعض يبحث عن اللاشيء وسط الهموم... وأنا أبحث عن نوم بعد ليلةٍ قاسية من القصف الذي طال الحي الذي أعيش فيه... ولكن السكان خرجوا مبكراً للبحث عن الجيران الذين انهارت عليهم البيوت في الليل وقبل أن تبدأ موجة جديدة من قصفٍ لا ينتهي!

الطائرات في المرصاد والصواريخ في المرصاد والجوع والجنود... كلها في المرصاد... ورائحة الموت تنتشر هنا وهناك... لقد اعتدنا عليها، فما عادت تثير

التقيؤ ولا الحزن... فالموت أيضاً لنا في المرصاد وإن تأخر قليلاً...

كان الجو حاراً جداً ولم أستطع النوم إلاّ والنافذة مفتوحة على عالمٍ افتراضي يدخل إلى غرفة نومي وهي كل بيتي، هذه الغرفة البائسة المتهالكة المعالم القديمة الأثاث التي تشير إلى مرور سكانها السابقين الذين ما زالت لمساتهم على جدرانها... وما زالت أرواحهم تحوم في المكان وحوله تذكرني ببؤسهم وفقرهم وسوء أحوالهم.

وهناك يقبع في جدار هذه الغرفة شباكٌ بشبكٍ حديدي كأنه منفذي ووسيلتي الوحيدة للاتصال مع العالم الخارجي.

أنتظر حياة تدخل من نافذة... أيتها الحياة أين أنتِ؟

فلم يدخل هذا الصباح إلاّ الغبار المتصاعد من البيوت المنهارة وأصوات العويل والصراخ والضرب على الجدران المتساقطة لعلها تنهار وتفتح نوافذ للحياة لمن دُفن تحتها حياً، ألعلهم أحياء؟ ألعلنا نحن أحياء؟

كانت الحياة وأقصد حياتي تترنح الليلة الماضية بين الحظ وبين نسبة خطأ... أين يقع الصاروخ أو القنبلة أو القذيفة فتجعل جاري يفقد حياته ويجعلني أنا التاعس أعيش ليوم آخر أو لمجرد ساعات أو حتى لموعد القصف القادم...

فجأة يعلو الصريخ والعويل والبكاء واللطم والشتم للأعداء... لقد وجدوا أحدهم تحت الانقاض... وجدوه جثة مُقطَّعة الأوصال... مهشمة لا معالم لها... هل يختلف عنا نحن الأحياء؟

نحن هنا لا شكل لنا... مُقطَّعي الأوصال الحياتية... نعيش ولا نحيا... نعيش على هامش الحياة... لا معالم لنا ولا للطريق التي نمشيها يومياً...

آه ما عدت استطيع الاستلقاء بعد عويل النساء المؤلم... لعله الشيء الوحيد الذي لم أعتد عليه حتى الآن هو بكاء أمٍ على طفلها الذي سرقه الموت منها قبل أن يذوق طعم البؤس في هذا المكان الذي لا يمنح شيئاً بالمجان إلا كثرة الأحزان... أنه اسم آخر يضاف إلى قائمة الشهداء التي لا تنتهي... وجسدٌ آخر ينزعونه قسراً عن صدر أمه ويركضون فيه للمقبرة والعلم يلفه... يريدون أن ينتهوا سريعاً من بؤسهم... والبؤس لهم ولي في المرصاد...

رفعت جسدي من السرير أنفض الغبار عنه ويا ليتني أستطيع أن أنفض الغبار عني...

أقوم متكسراً أتعثر بخطواتي وأنا لا أرغب أن أترك سريري لكن اشتياقي لفنجان القهوة...

وهذا الصراخ والبكاء والعويل يمنعاني من اتخاذ موقف الاستلقاء.

فجأة أسمع صوت طائرة قادمة من إحدى الجهات فيعلو صراخ الرجال للجميع بالاختباء والاحتماء فالطائرات هنا تستهدف الإنسان والحيوان والنبات وحتى بعض القاذورات التي تتطاير هنا وهناك...

هنا من عادة الناس الاختباء في ظل البيوت التي قد تنهار عليهم أو يختبئون داخل الدكاكين أو تحت ظل شجرة أو حتى التكوم على انفسهم قريبا من أي شيء يخفيهم عن نظر الطّيار الذي قد يستهدفهم... هنا من

عادة الناس إخفاء مشاعرهم وألمهم وبؤسهم... هنا من عادة الناس إخفاء خوفهم وغضبهم وحتى كفرهم فوق أطنانٍ من اللحى والصلوات والصوم والأدعية وترديد كلمة " الله" بلا معنى ملايين المرات كل يوم...

من عادة الناس أن يختفوا...

وأما أنا فتوقفت في منتصف الطّريق نحو الركوة أنتظر مصيراً قد يأتي الآن... اليوم... أو أنه مجدداً ليس موعده...

ولكن بعد ذلك بقليل غادرت الطائرة من دون سماع دوي أو انفجار فارتاحت أساريري...

كيف أموت من دون قهوتي؟

كيف أسجى في القبر هكذا سريعاً من دون أن أحتسي فنجان قهوتي؟ كيف سأصحو في موتي؟ كيف سأرتاح في قبري من دون أن أحتسي الآن فنجان قهوتي؟...

مشيت خطوة.. خطوة واحدة حيث ركوتي... لكن الاصوات عادت من جديد في الخارج لكن هذه المرة كانت الاصوات تزمجر وتهدد لشيء لم أفهمه... للمرة الأولى أشعر بفضولٍ لأعرف هذا الحدث الذي في الخارج... حدثاً قلب روتين البحث عن حياة وسط الموت إلى الاختفاء عن قوى الموت الباحثة عن أحياء!

فأخذت أسير نحو النافذة استطلع سبب التهديدات التي يطلقها بعض الرجال وما إن نظرت من النافذة حتى كانت الآف من الاوراق تهبط من السماء وتتساقط كحبات المطر إلى الأرض... هل جُنت سماؤنا؟ ما عادت تمطر صواريخ! تمطر أوراقاً!!

كان رجال بالسواد في الأسفل يصرخون مهددين من يمسك الورق بالسجن وهكذا عاد من يعملون على إخراج الموتى من تحت الانقاض لعملهم وعاد الفضوليون الموتى إلى روتينهم والأوراق أخذت تصل للأرض من دون أن يلمسها أحد أو ينظر إليها أحد والرجال بالأسود ينظرون للمارة وللمُنَّقبين وللسكان.. من منهم يمسك ورقة أو ينظر لها ولو من بعيد، فوقعت عينا رجل منهم عليَّ وأنا أستطلع المشهد فنظرت إليه وأشحت بنظري لئلا يفهم نظراتي له كتحدٍ... آخر ما أريده أن أتحدى...

وقررت العودة للقهوة... لصديقتي الوحيدة في هذه الأيام الصعبة... لأحتسي منها ما يبقيني على قيد حياة... رشفة كأنها قبلة...

وما إن التفتُّ حتى أخذ بعضهم يصيح بشدة وشعرت أن صياحه هذه المرة موجه نحوي فالتفت وإذ ببعض الأوراق تدخل مع نسمات غير بريئة من الهواء نحو غرفتي... هذه الغرفة التي لم يدخلها ضيف منذ شهور طويلة... المليئة بأوراقي... تسربت لها بعض نسمات الهواء وبعض الأوراق!

هذا اليوم دخل غرفتي ضيفان ثقيلا الدم! الغبار والأوراق التي رمتها الطائرة، فقط بعض الأوراق الفضولية التي اخترقت مع الأصوات والصريخ والعويل وكل هذه الفوضى العارمة خصوصيتي...

نسيت تماماً ما يحدث في الخارج عندما ترامت تلك الاوراق تحت قدميّ إلاّ ورقةً واحدة أصرّت إلاّ أنْ تسقط على راحة يدي اليمنى وكأنها تقول لي امسكني... اقرأني... وأنا بدوري لن ولم أدعها تذهب بسلام...

بدأت أقرأها وكانت ذا لهجةٍ بين الترغيب والتهديد تطالب السكان بالهدوء وعدم افتعال المشاكل وأن الهدوء يقابل بالهدوء وأن أي مقاومة تُقابل بمزيد من البطش... وأن بقاء المقاومين قرب المدنيين يعني موتاً لنا نحن المساكين!... كالعادة يخاطبوننا كأننا عبيد... وكأنهم يكافحون جرذاناً!

وبينما كنت أقرأ المزيد وإذا باب غرفتي يتحطم تحت ضربات عنيفة لمجموعة من الرجال الذين اقتحموا غرفتي وانتزعوا الورقة انتزاعا من يدي وانهالوا علي بالضرب بأقدامهم وأعقاب بواريدهم... والشتم والتحقير... إلى أن ارتميت أرضاً وهم يركلوني بأقدامهم... ما بال الضيوف هذا اليوم! جميعهم يدخلون بلا استئذان!

ثم فجأة توقف ضربهم بدخول أحدهم يبدو أنه رئيسهم ومشى ببطء وخطوات ثابتة نحوي إلى أن كاد حذاؤه يلامس أنفي... وقال: " ألا تعلم أنه يمنع عليك قراءة هذه المنشورات؟"... وكان أحدهم يجمع تلك الاوراق من أرضية الغرفة بينما أشار الرجل ذاته إليهم بإشارة جعلتهم يقلبون الغرفة رأساً على عقب وكأنهم يبحثون عن أي دليل أو إشارة معينة إلى أن وقعت أيديهم على مجموعة من الكتب فحملها أحدهم ومررها للرجل فأخذ يتأملها ويقرأ عناوينها: " العمل المأجور ورأس المال"... "البيان الشيوعي"... " سيرة حياة جيفارا"... " الدولة والثورة"... " الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية" فنظر لجنوده وقال: إنه من العملاء اليساريين... خذوه...

هكذا حملني أحدهم ووضع القيود في يدي ووضعوا كيساً اسود على رأسي فلم أعد أرى شيئاً واقتادوني إلى سيارة ورموني داخلها وبقيت ممدداً فيها إلى وقت طويل وأقدام كثيرة فوق جسدي تدوسني وضحكات الرجال حولي وكلماتهم وأحاديثهم لا تشير قطعاً إلى أن هناك إنساناً تحت أقدامهم وكأن لا وجود لي... كانت أقدامهم ترتفع عني فقط ليرتطم بجسدي جسدٌ آخر يئن من الألم... بعده بقليل جسد آخر يصرخ ويشتم... والتالي يستجدي رحمة... والتالي صامتٌ بلا حركة كان كالميت ولولا صوت بكائه الخافت لظننته ميتًا... تراكمت الأجساد المجهولة في المكان الضيق تماماً كما تراكمت أرضنا بقبورٍ لأجسادٍ منهكة... مقطّعة... مشوهة...

الفرق بيننا أن أجسادنا ما زالت تتنفس وأجسادهم ارتاحت... أجسادنا مربوطة بلا علامات إلا علامات الضرب... وأجسادهم مربوطة بأكفان وعلى قبورهم شواهد رخامية رخيصة الثمن تحمل عبارات الشهادة...

بقينا هكذا لفترة طويلة قبل أن يتم تشغيل السيارة أو المركبة التي كنّا ممددين فيها تحت أقدام الرجال... وتحركت فينا لوقت طويل جداً شعرت وكأنها أيام إلى أن غفوت تحت تأثير الهز المتكرر...

آهٍ يا قهوتي أين أنتِ؟

صحوت على أصوات الرجال وركلاتهم لي... ثم حملوني ورموني أرضاً... إرتطمت بالأرض... ولم ينتظروا مني السير بل جروني جراً إلى أن رموني كما أنا على أرضٍ صلبة وسمعت بعدها صوت الأبواب الحديدية تغلق بإحكام... حاولت أن أتحرك لأريح جسدي ولكن بقيت هكذا أتنفس بصعوبة وأتحرك بصعوبة على

الرغم من حرارة الجو لكن برودة الأرضية الاسمنتية الصلبة آلمني وغطاء وجهي خنقني والبقاء طويلاً هكذا أتعبني إلى أن تملكني النعاس فنمت مكاني... بلا قهوتي!!

جُل اهتمامهم الأرض... وجُل اهتمامي قهوتي!

لأجل الأرض داسوا الإنسان... قتلوا من يعارضهم... وأنا لأجل قهوتي سأتخلى عن أي شيء... أحتاج إلى القهوة...

لعلي ما زلت في غرفتي؟ لعلي نائم؟... قد يكون هذا كله حُلماً مزعجاً؟ يا ليته حلم... فأصحو وأشرب قهوتي وأمارس حياةً مع أنها ليست الحياة... يا ليته حلم...

أريد أن أصحو من حلمي!

وبعد مرور وقتٍ طويل سمعت صراخاً وأحاديث الرجال مجدداً... صحوت من نومٍ أعادني للواقع... أنا لا أحلم... أصوات الرجال تقول لي لا تحلم... الحلم هنا ممنوع... كأشياء كثيرة...

سمعت صوت فتح الباب ثم شعرت بأحدهم يرفعني وثم أزال غطاء الرأس عن رأسي ثم أزال القيود من يدي وقال لي: " الآن كُل... لأنك ستتوجه بعد ساعة للمحكمة".

فقلت له: " المحكمة؟ لِمَ؟ ماذا فعلت؟"

لم يُجب بل أخذ صحناً من المعدن وفيه القليل من الأرز والخبز ووضعه على الأرض ثم غادر سريعاً وأوصد خلفه الأبواب بإحكام... نظرت حولي لأول مرة، ولم أحتج إلى وقت طويل لأحدد المكان الذي أنا فيه... غرفة سجن لا تتسع إلاّ لي وبجانبي قطعة قماش يبدو أنها وضعت لأتدثر بها ومقابلي ثقب في الارض يبدو أن

السجناء قبلي كانوا يستخدمونه للراحة ومنه تخرج أسراب من النمل وأحياناً بعض الحشرات الزاحفة ثم تختفي بعد حركة بسيطة مني وفي أعلى الغرفة ثقب صغير يدخل منه بعض النور والهواء للغرفة وهذا الثقب مغلق بإحكام بقضبان حديدية وأمامي قضبان حديدية ضخمة يتخللها باب صغير... حياتي معلقة بهذين الثقبين... وكأن حياتنا كلها تبدأ بثقوب وتنتهي بثقوب...

وكأنني لم أفارق غرفتي كثيراً فالمكان هنا يتشابه كثيراً مع المكان هناك وجداريات نزلاء هذا المكان لا تختلف كثيراً عن لمسات سكان غرفتي السابقين والقضبان الحديدية هنا تُشبه كثيراً لدرجة التوأمة الشبك الحديدي للغرفة إياها... إذا شيء ما سيعزيني وهو كأنني لم أفارق المكان كثيراً.

لكن الخوف تملكني والجوع قد تملكني أيضاً ولا أعلم متى آخر مرة أكلت فيها شيئاً... لا أعلم منذ متى وأنا معتقل! ولكن أشعر وكأن يوماً كاملاً قد مر... كنت قد بدأت أسمع أصوات آخرين وأصوات أبواب حديدية تفتح وتغلق وأصوات صحون المعدن وملاعق وأصوات أناس كثيرين، أحاديث كثيرة تخترق المكان وكأنها لا تعبأ بالحديد الذي يعزلهم عن الحرية وكأنها لا تمانع الجدران الاسمنتية والأرض القاسية، شعرت وكأن الأحاديث ودية واعتيادية وكأن الساكنين هنا على علاقة طيبة مع المكان القاسي أو لعل هذا المكان القاسي أحن عليهم من الواقع المؤلم الخشن والمؤذي في الخارج... حاولت أن أكل ما في الطبق الذي يحمل الرقم

٦٦٦[1] من أرز قاسٍ بلا طعم وخبز ناشف... اكتشفت لاحقاً أنها الوجبة الوحيدة في اليوم وكان التأخير في أكلها يعني صراعاً مع النمل والصراصير عليها... إنها الوجبة المتكررة سبعة أيام في الاسبوع لا تتغير ولا تتبدل وبعدد حبات الرز نفسها... تلك الحبات التي أخذت أعُدُها على سبيل أن أشعر بالحياة... حتى قطعة الخبز... الحجم نفسه يومياً.. ولكن كل يوم يختلف نضوج حبات الارز، ولعل معظم الأيام يكون الطعام قديماً وكأنهم يطهون الارز مرة في الأسبوع ولباقي الايام... لهذا كنت دوماً أشعر بألمٍ في معدتي... وكنت أتلوى أياماً من الجوع ومن شدة الألم... لكن يبدو أن معدتي أخذت تعتاد الطعام والألم فما عدت أقضي وقتي فوق ذلك الثقب أستخرج الطعام من جسدي وأنا أعتصر ألماً...

كان الطعام يقدم لي مرة في اليوم في الصحن عينه ذي الرقم ٦٦٦... فعلمت أنه رقمي بل اسمي في السجن حيث لا هوية ولا اسم لك بل أنت مجرد رقم... كان الصحن كقطعة أثاث... لا يخرج أبداً من السجن... فقط يخرج مرة واحدة يوضع فيه الطعام ويعاد إليّ...

وكل يوم كان يأتي الحارس نفسه ويقول لي: " اليوم يوم محاكمتك"... وكل يوم أسأله عن تهمتي ولا يجيب...

إلى أن نسيت عدد الأيام التي قضيتها هنا وما عاد السؤال يهمني... ولا التهمة ولا أي محكمة... ومع الأيام أصبح يضع الطعام من دون أن ينطق شيئاً ومن دون أن أسأله شيئاً، وأكل الطعام سريعاً وأعود للروتين نفسه كل

[1] إنه الرقم الذي يرمز للشيطان.

يوم أحملق في الجدران وفي الحديد وأحاول أن أنصت للأحاديث ولا أفهم منها إلاّ القليل القليل...

ثم ما عادت هذه الأحاديث تهمني فأخذت بنفسي أتحدث.. وأتكلم.. وأضحك.. وأبكي.. وأصرخ.. وأغضب.. وأضرب بيدي على الجدران وبقدميّ على الأرضية.. وأحياناً أتحدث إلى النمل الصاعد من الحفرة حيث أقضي حاجتي... وأسألها كيف الحال؟ ولا أجد جوابًا... أتصارع معها أحياناً وأتهمها بالدخول إلى زنزالتي من دون استئذان وأنني سأشكوها للحارس... لكن لا أجد جواب!! وأحاول أحياناً أنْ أصادق تلك الحشرات التي تزورني في السجن من صراصير وذباب حيث لا يزورني أحد إلاّ هي.. وذلك الحارس الذي لم يعد يخاطبني... ويضع ذلك الصحن البالي في المكان نفسه من دون أن ينظر إليّ وكأن الزنزانة فارغة لا أحد فيها...زنزانة فارغة من كل شيء إلاّ من صحن أرز وقطعة خبز ليعود في اليوم التالي ليأخذ الصحن فارغًا من دون أن أتحدث معه ولو بأقل القليل... ليملأ الصحن مجدداً من ذلك السم... من دون كلام...

كنت قد بدأت بقراءة جداريات النزلاء... أشياء مفهومة وقصص وشعر وحب وحتى أجساد عارية... وأشياء غير مفهومة كأرقام واسماء ورموز وخرائط... لعلهم سجلوا وجودهم هنا... لكني لا أرغب أن أسجل وجودي!

كم من سجين رفض أن يسجل وجوده في زنزانة...! أنا واحد منهم...

نَمتْ لحيتي بشكل كبير ورائحتي ما عادت تزعجني... وما عُدتُ أعرف شيئاً عن الخارج... لا التاريخ ولا

الوقت... حتى بدأت أشك أنني على قيد الحياة... ماذا سيكسر الروتين؟... لا شيء إلاّ أن أعلم من أنا؟

وفي أحد الأيام كان هناك رجلان على الباب... شعرت أن هناك خطباً ما فدخلا علي وسحباني كالعادة خارج الزنزانة... إنها أول مرة أخرج من هذا القبر... لقد مر وقت طويل جداً لم أعد أتذكر فيه متى كنت خارج هذا المكان...

لقد كان الحُراس يسحبون الكثير من الرجال والشباب من زنازينهم ويجرونهم جرًّا عبر ممرات ضيقة حتى وصلنا إلى داخل غرفة في قفص وبدأوا يحشروننا في القفص حشراً وكأننا دجاج في قن، وخارج القفص قاعة كأنها قاعة صفٍ مدرسية... وفيها عدد من الطاولات والكراسي ومنصة كأنها معلقة في الهواء في صدر القاعة... واستمر الرجال يدخلون المساجين ويحشروننا في القفص المطل على تلك القاعة الفارغة إلى أن امتلأت عن آخرها وما عادت تتحمل المزيد... كنا جميعنا وقوفاً ووجوهنا وأجسادنا متلاصقة ولا نستطيع أن نحرك أيدينا أو حتى أن نتنفس بحرية... وما هي إلاّ دقائق حتى دخل مجموعة من الأشخاص وصرخ أحد الحراس " محكمة"، فدخل رجلٌ عجوز وجلس على كرسي خلف المنصة، والباقون جلسوا مقابله...

وأخذ الرجل الطاعن في السن ينظر إلى أوراق أمامه لفترة ثم نظر إلى الأشخاص الذين أمامه وقال: " الادعاء موجود؟" فوقف أحدهم وقال: " نعم سيدي القاضي" فقال له: " بماذا تتهمون هؤلاء؟" فقال: " الخيانة العظمى للوطن والمقاومة... وإشاعة الفوضى" فقال له القاضي: "اجلس" ... فجلس الرجل.

وعاد القاضي ينظر في الأوراق مجدداً وبعد وقت رفع نظره للجالسين وقال: " هل محامي الدفاع موجود؟ " فقام رجل من الجالسين وقال: " نعم سيدي القاضي، أنا حاضر عن المتهمين جميعاً" فسأله القاضي: " هل اعترفوا بأنهم مذنبون؟" فقال المحامي: " نعم سيدي القاضي لقد وقّعوا جميعاً على أوراق الاعتراف، جميعهم سيدي القاضي اعترفوا أنهم مذنبون" .

ساد هرج ومرج بيننا وحاولنا على الرغم من أننا محشورون أن نقول للقاضي إنه مُدعٍ وأننا لم نشاهده...

كان الكل يحاول إيصال الرسالة نفسها والاعتراض نفسه لكننا كنا تقريبا نصرخ في وجوه بعضنا البعض ونزمجر وندوس أقدام بعضنا وأيدينا تلامس خطأ الاماكن الحساسة في أجساد بعضنا البعض...

كانت أصواتنا غير مفهومة... كانت صراخا وأحاديث وهرجا ومرجا أزعجت الحضور والقاضي الذي أخذ يطرق بالمطرقة الخشبية ويدعو الحراس إلى فرض الصمت داخل القفص الحديدي... وأخذ الحراس يخزوننا بقضبان تطلق شرارات كهربائية في أجسادنا أثارت من أصابتهم وآلمتهم كثيراً لدرجة البكاء وهكذا استطاعوا أن يفرضوا الصمت علينا جميعا على الرغم من تأوهات من وصلتهم ضربات الكهرباء. فقال القاضي: " أنت... أيها المحامي، كيف تقول إنهم وقعوا على الاعتراف؟" فقال المحامي: " نعم سيدي القاضي وأمامكم أوراق الاعتراف والمستندات الثبوتية الكاملة." فنظر القاضي إلينا جميعاً ثم نظر إلى الأوراق التي أمامه، ثم قال: " أحكم على المذنبين الذين وردت أسماؤهم في لائحة الدعوة بالإعدام رمياً بالرصاص"، ثم حمل المطرقة

الخشبية وطرقها بالطاولة وقام وخرج من الغرفة وتبعه كل من في الغرفة وسط صراخنا والهرج والمرج والبكاء والعويل ونحن نتدافع والحراس يخزون بعضنا بالكهرباء وهم بدورهم يصرخون علينا بالصمت والهدوء. ثم فتح باب الزنزانة وأخذوا يخرجون المساجين عشرة عشرة، يأخذونهم إلى مكان لا نعلم إلى أين... ثم فجأة سمعنا صوت إطلاق النار فساد الرعب بيننا وأخذنا مع المساحة القليلة المتوفرة بيننا داخل القفص الحديدي نتحرك ذهاباً وإيابا نتقاطع بأجسادنا وندفع بعضنا بعضاً ونحن نبكي ونرتعب ونصرخ، فدخلت مجموعة أخرى من الرجال السود وأمسكوا بعضنا كأننا غنم تُساق للذبح... وجروا للخارج عشرة أيضاً وتكرر صوت الرصاص القاتل فجلس بعضنا أرضاً لشدة الرعب والهلع والبعض أخذ يلطم والبعض يصلي وتكرر صوت الرصاص ثم بعدها بلحظات دخل الرجال أنفسهم والضحكات تملأ مُحياهم وهم يتحدثون عن الموتى وكأنهم دجاجات تفر وقد أُطلقت عليها الرصاصات... واخذوا عشرة وبينهم أنا وجرونا إلى الخارج ولأول مرة أخرج من باب نحو الخارج حيث سطع نور الشمس في عينيّ ولم استطع فتحهما لشدة ضوء الشمس فدفعني الرجال وأنا مغمض عيني فشعرت أنني أسير على أجساد بشرية فنظرت إلى الأسفل وكنت أتعثر بأجساد المساجين الذين نالت منهم رصاصات الموت وتعثرت بجسد أحدهم وتعثرت بالموت وسقطت... وكانت آخر مرة لي على قيد ورقة آخر مرة لي أكون فيها على قيد حياة...

لقد متُ من دون قهوتي...

ممنوع من الحواس

جلس الصديقان في مقهى يستمتعان بعد عناء العمل بنرجيلة بطعم التفاحتين وفنجاني قهوة وأمامهم التلفاز الكبير وقد أخذ الزعيم يلقي خطاباً مطولاً... لا أحد في المقهى الوسيع يكترث له، وقد كان صوت التلفاز يهمس همساً وسط ضحكات الزبائن وأصوات نكاتهم وتعليقاتهم وأحاديثهم الجانبية والثنائية والمتعددة المرتفع منها والمنخفض وتلك الاصوات التي تظهر فجأة وتختفي من ضرب لعبة الطاولة الشعبية واحتكاكات ورق الشدة أو حتى الصوت الخفيف لتحركات جنود لعبة الشطرنج...

قال الصديق الاول وهو يشير للتلفاز: هذا الرجل عميل.

فقال الصديق الثاني وهو ينظر للتلفاز: إنه زمن العملاء.

- يتحدث دوماً عن الديمقراطية والحرية وهو يقودنا بالعصا والحديد.
- نحن شعبٌ مقود مسلوب الحرية... يضعون لك قواعد لكي تسير عليها كحبال الغسيل.
- غسيلهم القذر المملوء من بقع الفساد والسرقة والرشوة وتبيض الاموال.
- لا نمشي على حبال غسيلهم القذر ولكننا لا نفعل شيئاً حيال هذا الغسيل!
- كالقردة لا نحكي لا نسمع لا نرى.
- إذا كان الرب قد خلق لنا حواسنا الخمس فلماذا نعطلها ولأجل ماذا نعطلها؟ أليس من الأولى بنا استخدامها بما هو مفيد! ولكن كالعادة هناك من

يضع نفسه حاكماً وقاضياً ومحامياً عنا في كل مجتمع وفي كل وقت وفي كل مكان وفي كل حدث...في الحياة كلها.

- نعم صحيح، لماذا ممنوع علينا أن نتذوق الحياة بحلوها ومرها وإذا كان الأهل لا يستطيعون إيقاف الحياة لحماية طفلهم من تجاربها المرة فمن نحن لنختار للناس طريقاً نقدمه إليهم على أساس أنه حلو وهو ليس أكثر من مرارة نختارها لهم. لماذا ممنوع علينا أن نشم الورود والريحان والياسمين والجوري ووجب علينا فقط أن نشمّ نفاياتهم وأوساخهم وقاذوراتهم الظاهر منها والمخفي الملموس منها وغير الملموس، لماذا نزرع شجرة ونقتلع مِئات الاشجار ونحرث متراً ونحفر مئة متر اساسات لبيوت إسمنتية أكلت أراضينا ومزارعنا وغاباتنا وحقولنا. لماذا ممنوع علينا النظر؟ أمطلوب منا أن نكون عميانًا كي لا نرى ، ويقودوننا هم إلى الطّريق والمكان الذي يريدوننا أن نكون فيه.

- مطلوب منا أن نكون عميان بصيرة ولا مانع أن نكون عميان بصر، أن ننظر وننسى، أن ننظر ولا نناقش ولا نتكلم ولا أن نقول هذه حفرة في الطّريق وهذا حجر يعيق وهذه صخرة لا قطعة خبز وهذه أفعى وليست قطعة لحمة، فنحن مطلوب منا أن نكون عميانًا لنقع في الحفرة ولنتعثر بالحجر ونأكل صخرة

وتلدغنا أفعى ليقولوا لنا أرأيتم نحن من ندلكم على الطّريق لأنكم تجهلون الطّريق.

- هذه هي سياسة التوجيه يا صديقي الذي يتبعها رجال السياسة ورجال الدين.
- نعم ورجال الدين كأنهم سياسيون أيضاً.
- هؤلاء اخترعوا طريقاً للتوجيه بلحاهم وأثوابهم وألسنتهم التي تنطق باسم الله وأنبيائه دوماً.
- نعم.
- لماذا ممنوع علينا السمع؟
- هم يقولون لنا أغلقوا آذانكم لئلا تسمعوا ضجيج العالم أغلقوا آذانكم لئلا تسمعوا تفاهات العالم! أما الاحرار فيفتحون آذانهم أكثر فنحن نحب الحياة ونحب أن نسمع زقزقة العصافير لنفرح بها نحب أن نسمع حتى نهيق الحمير ومطرقة العامل وبكاء الارملة وصوت معدة طفل جائع... نحب أن نسمع كل هذه وكل أصوات العالم ولا أريد أن أسمع فقط أوامرهم وعظاتهم ودعواتهم ودعاويهم وتحليلاتهم وفتاويهم واحاديثهم المليئة بالسموم.
- وكأنك تريد أن تقول إنك لا تمانع حتى أن تسمع الشتيمة.
- في مجتمع حر يمكن أن تبني التربية بسهولة، بينما في مجتمع مقيد ومهزوم ومسير تصبح التربية صعبة.
- كلام سليم.

- في مجتمع حر يسعى قادة المجتمع وهم عادة قادة الفكر بأن يكون المجتمع مجتمعاً ذا أخلاق حميدة، لذلك أن تسمع شتيمة في السوق تكون نادرة ومستهجنة أما في المجتمعات المقهورة والمهزومة والمسيرة وذات الفكر الاحادي المنغلق فتسمع الكلام الطيب بصعوبة وتعتاد أذنك سماع الشتيمة.
- ليس هناك مجتمع مثالي، فكل المجتمعات فيها الحسن وفيها السيّئ.

فدخل صديق لهما وسلم عليهما وطلب نرجيلته كالعادة وأخذ ثلاثتهم يتحدثون وسأل الأول صديقه الثالث عن رأيه فقال: لماذا ممنوع علينا أن نتذوق؟ فاللسان لساني والفم فمي ومن حقي أن أعرف أن للسكر طعماً حلواً وللملح طعماً مالحاً وللمر طعماً غير مستساغ. من حقي أن أستخدم لساني... هذا العضو في جسدي من دون أن يفترض صاحب السلطة بأنني سأستخدمه في مضرته أو مضرة المجتمع.

قال الاول: مشكلتهم ليست في مراكز التذوق في اللسان مشكلتهم في اللسان نفسه.

- مشكلتهم أنهم يريدوننا بلا لسان أو عيون أو آذان.
- من حقنا أن نستخدم عقولنا.
- من حقي أن يذهب عقلي بإرادتي لا بإرادتهم.
- إن كان عقلي ملكي فلماذا يريدونه ملكاً لهم؟
- إني أحسد المجانين لأنهم فقدوا عقولهم ولا يرون العالم بمشاكله.

أيد الصديقان كلامه واتفقوا أنهم وأننا جميعاً ممنوعون من الحواس.

رحلت...

قررت يوماً أن أهاجر...ورحلت

وضعت كل ما أملك في حقيبتي الوحيدة المهترئة لكثرة أمنياتي بالسفر...ورحلت

كم كانت هذه الحقيبة ثقيلة... فهي مليئة بالكثير ممّا لا تعرفون لذلك وزنها لكم خفيف ووزنها بالنسبة إلي ثقيل... حملتها وأغلقت باب غرفتي ورحلت...

في المطار حينما وضعتها على الميزان وجدوها تفوق الوزن المحدد ففتحوها يحاولون إفراغ بعض محتوياتها فصدموا أن وجدوا محتوياتها قلماً ودفتراً! فتركوني أحملها ورحلت...

عند الجمارك قالوا لي بأنني لا بد وأنني أّهرّب ممنوعات وقبضوا علي وفتشوني... ثم أطلقوا سراحي لان الممنوعات كانت مكتوبة بقلم حبر ازرق جاف على ورق ابيض، وعندما قرأوا ما كتبته حزنوا علي... وسمحوا لي بتهريبها خلسة... وهكذا رحلت...

وعندما ركبت الطائرة رفض القبطان الطيران خوفاً على حياة الركاب فقد اتهمني بأنني أحمل عبوات ناسفة وهكذا أنزلوني من الطائرة مع حقيبتي ورموني خارج المطار... هكذا رحلت... وعدت من حيث أتيت...

هروب

أترك قدميّ للريح، أهرب من شيء ما يلاحقني كأنه ظلي، أهرب لا أعلم أين، فقط أحاول ترك المكان خلفي، وكم أرغب أن أقاتل وأجابه لكن ماذا أقاتل؟ ماذا أصارع؟ شيء مهما صارعته ينتصر علي ويقوى عند كل حرب، أترك هذا القدر الكبير من العنف والعنف المضاد وأهرب، أترك قدميّ للريح، أرغب أن أترك المكان.

معركة مع كومة حديد

أشرب قهوتي الصباحية على عجل.. أمارس الركض والهرولة بين حافلتين أو أكثر لكي أصل إلى العمل مبكراً، وفي المساء أمارس الجري والمصارعة لأصل إلى البيت مبكراً، لعلني أصل قبل الغروب. أركض أمام ثيران إسبانيا أو أهرب خوفاً منها لعل الادرنالين يخترق شراييني فينهار تصلب الوطن. أركض إلى مكان محدد وكأنها نقطة صباحية ونقطة مسائية وأنا بين النقطتين أتحرك، إنها كهواية أمارسها ولكن من دون حب وكثيرون مثلي يمارسونها من دون حب، أقارن بيننا والغرب هناك يركضون لأجل الركض ونحن نركض لأجل لقمة العيش، هناك يستغلون وقتهم الضائع في الحافلات والقطارات في القراءة ونحن نستغل الوقت الضائع في الحافلات في إراحة أجسادنا المنهكة من ضياع الوقت. هم يمارسون الانتظار بالقراءة أو الكتابة أو التأمل ونحن نمارس الانتظار بترقب وتوتر، هم

يستخدمون خلايا دماغهم لأقصى حدودها ونحن نقتل خلايانا خلية خلية... اعذروني لا بد لي أن أتوقف عن الكتابة وأن أهرول الآن فأمامي حافلة تتسع لبعض البشر يركض نحوها المئات وينحشر فيها الكثير منهم، نركض نحوها لعل أحدنا يربح جائزة هي ركوب الباص. فينظر المنتصرون لنا نحن الذين في الخارج نظرة كأنها نظرة الخجل منا وكأننا خسرنا الحرب وكأنهم هم من انتصروا على الحشود وقهروها بأن أوجدوا لأنفسهم مساحة ما في حافلةٍ هي حافلة موتى. أما نحن من بقينا في الخارج فنحن نتحضر لمعركة أخرى لعل الانتصار حليفنا في المرة المقبلة وقد تتكرر الخسارة فيستهجن البعض ويعترض البعض ويشتم البعض لكن كثيرين ممن اعتادوا هذا الروتين ما عاد الامر يؤثر فيهم ولا عاد يسبب لهم إلاّ تجاعيد الملابس وألم المفاصل ووقوع بعض أغراضهم أرضاً أو سرقة تحدث سريعاً ببرق العين.

إن حياتي بلا حماسة وحافلتي بلا حماسة وركابها بلا حماسة وحتى السائق ما عاد يشعر بالحماسة فكلنا بنظره مجرد دنانير يسقط بعضها في حصالة الحافلة ويسقط بعضها في جيوبه الفارغة انتقاما على قلة راتبه وخلو حياته من أي شيء إلاّ كرسياً خلف دولاب وبعض ركاب يشتمونه كل يوم.

أما نحن المحشورين حشراً فلا نهتم بشيء إلاّ الوقت الضائع الذي نريد أن نكسبه لنصل الوجهة!! نجلس بجانب بعضنا بعضاً أو نقف بجانب بعضنا بعضاً ننظر لوجه بعضنا ولا نشعر بأية عواطف تجاه بعضنا وعلى الرغم من بعض الأحاديث الجانبية المتقطعة لكننا

نعرف أنها ليست سوى مضيعة للوقت ومحاربة للتعب والإرهاق، وقد لا تخلو بعض الأحاديث من مشاكسة أو ملاطفة أو تحرش، وبعد قليل سينتهي هذا الفضول الغريب ونرحل عن الحافلة لتستقبل كومة الحديد هذه المزيد من المعارك مع غيرنا.

وطن وحلم

قال لي: اشتقت لوطني.
قلت له: لا يهم إن غمست خبزك بالقليل من ملح الأرض لأنك بعدها لن تصبح غريباً في الأرض بل لاجئاً تنتظر هدوء الحرب لتعود إلى وطن العواصف.
قال لي: حلمي أن أعود.
قلت له: الاحلام هوية، الاحلام وطن.

مدينة تجمع تناقضاتي

جلست على ذلك المقعد الخشبي المتآكل وأخذت أدون بعض ذكريات مدينة تجمع تناقضاتي، تحتوي على نجاحي وفشلي، تختصر عمراً من عمري وكأنه الأمس القريب، عمان بلا هذه الاماكن وبلا هذه الوجود وبلا هذه الإنسانية ليست عمان التي أعرفها وكلما حاولت أن أدخلها ولو تغيرت الوجوه فكبرت وهرمت ومات بعضها ولو تغيرت بعض الأماكن لكن الأماكن بقيت كما هي، بقيت على التصنع نفسه مثلي فأنا مثل عمان وعمان مثلي. لا أتخيل عمان من دون هذه الذكريات

والكثير التي لم أدونها، عمان التي لجأت إليها والتي أنزح عنها، عمان التي قضيت فيها بعض الليالي، كثيراً منها باكياً، عمان التي أحبّها...

أتحدث عن عمان...عمان هذه المدينة التي أحفر يومياً اسمي على خصلات شعرها وأرسم اسمي كالكحل على رموش عينيها، هذه المدينة التي تحافظ على عذريتها على الرغم من كثرة محبيها.. هذه المدينة التي تحافظ على توازنها على الرغم من كل الالم الذي فيها... كلما مشيت فيكِ يا عمان أشعر أنني قطرة دم تسير في شرايينها أحمل على الرغم من صغري بعضاً من أكسجين وطعامٍ لجسد هي القلب فيه... وعلى الرغم من كل الاحباطات أدخل قلبها الكبير العميق فينقيني من الشوائب ويرسلني لأعطي المزيد... من لا يعشق عمان... صعب له العيش فيها! من لا يحب عمان... صعب له المرور فيها!

لهذا أُحبّ عمان

بين هنا وعمان مسافة أقطعها كل يوم عمل، هناك أتقابل مع عمان المكان وعمان الوجوه وعمان العمل وعمان التراث وعمان الطعم ولا يكتمل يومي إلاّ بقهوة الصباح أحتسيها مع عمان...

من لا يعشق عمان لا يعشق نفسه.

لقد تعبت يا عمان! بئس الحبيبة التي لا تتعب حبيبها ولا يتعب من أجلها...لهذا أحبّ عمان.

إعلان طرح عطاء

سأبيع قلبي فما عاد يلزمني... سأبيعه لمن يشتري أكثر بمزاد علني... تذكرت أن مفكري هذا الوطن يتخذون من شوارع وأزقة وسط البلد في عمان وبالتحديد أمام الساحة الخارجية للمدرج الروماني "بسطة" كبيرة يعرضون فيها على شكل عطاء ما قرأوه من كتب فكرية وفلسفية وسياسية وروايات عالمية وهم في معظمهم أصحاب فكرٍ يساري جار الزمان عليهم فلم يجدوا سوى كتب أحبّوها ليبيعوها على قارعة الطّريق لمن يشتري أكثر... تلك الكتب التي تحمل بصمات مؤلفيها الكبار قد أكل الدهر وشرب من أوراقها وأغلفتها فتراها وقد عفى الزمان عليها وعلى ما كتب فيها وما عاد هذا النهر الهادر من الناس يهتمون أصلا لوجودها... نعم فكتب الدين والطبخ والرسائل التافهة في الحب والروايات الهابطة كلها تأخذ اهتمام هؤلاء الهياكل التي تشبه البشر.

ذهبت إلى تلك البقعة الخالية من الباعة... تركوها لأن المارة اعتادوا التبول فيها فما عاد أحد يستطيع أن يقبع فيها... وأما المارة فكانوا يستعجلون المسير عندما يصلون إليها وأيديهم تخنق أنفاسهم... وأما أنا فلم أجد سوى تلك البقعة تحتضنني وأما عن انفاسي فما عدت أهتم بكتمها فهي أحد الأشياء التي أكتمها لدرجة أعتدت فيها أن أكتم كل شيء...

هناك في البقعة التي تميل للاصفرار من عبق التاريخ ومن عبق التبول وضعت قلبي ووقفت أنتظر مرور

أحدهم ليأخذ عن كاهلي هذا الشيء الذي ينبض فيدفع فيه أكثر ويأخذه عني ويرحل...

لا يهمني من هو أو هي... لا يهمني ماذا سيفعل أو تفعل به... بالتأكيد لنْ يفعل به ما فعلته أنا به...فأنا أبيع الآن بضاعةً محطمة ولا تحمل عبارات تجارية مشجعة مثل " خالي من العيوب المصنعية" أو " نضمن لكم الجودة" أنه قلب يخفي في معالمه ما يقال عنها بالعامية " بضاعة مضروبة" أي البضاعة التي تحتوي على عيوب تكتشفها مع الاستعمال.

هذا القلب تعبان ومستهلك وقارَبَ عمره الافتراضي الانتهاء... لكننا هنا نحاول دوماً بيع البضاعة المستعملة بعد أن نجملها وندهنها ونحاول أن نحسن أداءها لتبقى لبعض الأيام بعد البيع...

لكن قلبي ليس الوحيد المستهلك والمحطم في هذا المكان، فهنا كان التاريخ ولكنه محطم وهنا تقبع الكتب بانتظار البيع ولكنها ممزقة ومستعملة ومستخدمة وتَعِبة من ذاتها ومما تحمله من أفكارٍ لم تعد مُستخدمة ولا مُستعملة...

أنظر إلى تلك الكتب بحزنٍ... كُتبٌ قد عَفَى عليها الزمن وتمزقت بعض أوراقها وتهشمت أغلفتها... بعضها قرأتهُ وبعضها لا... كذلك قلبي بعضه قرأته وبعضه لا...

هناك في صدري كان قلبي لكني نزعته لانني لا أريده... وهناك على رفوف مكتبة جميلة كانت بعض هذه الكتب تحتفظ بداخلها على الفكر والفلسفة العظيمة مطوية تحت غلاف سميك وكان الكثير من تلك الكتب تدخل سراً الى البلاد ويتداولها اصحابها والمعجبون بها

سراً...ولكنها الآن مثل قلبي تقبع بلا معنى ولا هدف تحت غلاف متهالك لا يقوى على حمل هذا الكم الهائل من الاوراق القديمة الصفراء التي ما عادت تنافس مثيلاتها من كتب التطرف الديني الصفراوية الفكر التي تتكاثر كالبكتيريا والفيروسات على أرفّ المكتبات وفي المطابع...

أريد أن أبيعك أيها القلب وأنتهي...

ليس لأنني انتهازي كاذب أبيع بضاعة قديمة مستعملة فأنا سأكون صريحاً مع المشتري بل مع كل المارة بأن هذا القلب ليس بغلافٍ وليس بجديد...وأنه وطني حتى النخاع وليس من صناعة صينية... أنا سأخبر المارة بل سأناشدهم الشراء بأعلى صوتي بأن بضاعتي ليست مكفولة ولا مضمونة...

سأعلمهم بأن هذا القلب للبيع لأنني مللت منه... مللت من الاعيبه وحركاته الصبيانية... فما عاد يراعي عمري ولا يُقّدر الشيب الذي أصبح يغطي بكثرة شعري وحتى لحيتي...

سأعلمهم بأن هذا القلب للبيع لأنني مللت خيانته لي وهروبه المستمر وتركه البيت... هو لم يعد صغيراً فليكف عن الهروب، سأدعه يرحل ولكن بعد أن أقبض الثمن.

سأعلمهم أن هذا القلب ما عاد لي وأن عودته أحياناً لي لم تكن إلاّ لتعويض الخسارة..

أنه عندما يكون هناك... في صدري... يكون وجوده مرحلة آنية، مرحلة عابرة، احتلالاً غاشماً، سجناً مؤقتاً، فرض إقامة جبرية...

سأتخلى عنه لمن يدفع أكثر...

صرخت وصرخت " قلبٌ للبيع... قلبٌ للبيع"... وهو هناك مرمي على الارض فوق قطعة من ورق الجرائد القديمة... هناك يقبع بين قدمي مطروح ينتظر قدوم الفرج...

" قلبٌ للبيع"...ويمر المارة بعضهم ينظر وبعضهم يدنو وبعضهم لا يهتم...

مر كثيرون ولم يحظَ هذا القلب باهتمام أحد...وكانت صرخاتي تتشابك مع صرخات باعة البيض والكعك وباعة المجلات الخليعة القديمة العهد والاقراص المدمجة المزورة ومع باعة الاجهزة الكهربائية المقلدة السيّئة الصنع ومع صرخات باعة الكتب... اختلطت كلها معاً مع روائح عمان ونشوتها وانتشائها، وذلك القصر الرابض فوق... وتلك القلعة الصامدة مقابله وهنا في الاسفل... حيث نحن.

موطئ قدم

أنت تدوس على موطئ أقدام السابقين... تضع بصمتك حيث بصمتهم القديمة، هناك حيث مروا...

مدننا منهم وفيهم... عندما ولدوا أُخِذوا من تُرابها... وعندما ماتوا أعادوا للأرض ما أخذوه منها...

هنا مروا.. هنا سكنوا.. هنا أكلوا وشربوا وناموا وبكوا وضحكوا وأصواتهم ما زالت باقية وإن رحلوا...

هنا مارسوا الحياة... ونحن نمارسها أيضاً.

موعد مع عمان

كان يفترض أن يكون لنا لقاء بعد مدة من الفراق، ولكن الغيوم بأمطارها والرياح بهبوبها والطقس ببرودته وهذا آذار الصعب منعني من لقاء كنت أعد له بشوق منذ أسابيع. إذاً إنها مؤامرة... تآمرت كل هذه الآلهة لتمنعني من لقائكِ أيتها الحبيبة المستلقية على الهضاب منذ قرون، وما زلتِ تلك المرأة النصف إله، الناعسة وليست النائمة. حتى وعندما كنت مطمورة تحت الكثيف من الأتربة والمتساقط من حجارة جسدك الجميل كنت تعلمين أن لقاء سيجمعكِ مع الكثير من العشاق الذين يسكنون قلبكِ أو يمرون مرور الكرام على جسدكِ الجميل ويمارسون معكِ لعبة الحياة. لذلك وبعد قرون من الصمت كنت خلالها تروين قصص الغموض لزوار يشربون من سيل رأس العين نفضت الغبار وقررت ممارسة القيامة وها أنت تصعدين نحو السماء وتتركين لجسدك حرية الامتداد وكأنك تتمغطين بعد السبات. قريباً سيكون لنا موعد أيتها السيدة عمون، قريباً سأمر كل يوم على قلبك كقطرة دم أحمل لكِ الكثير من الحب وتحملين لي الكثير من الحب، هناك سأمارس الهرولة والمشي بين أطراف جسدك الجميل... سأحتسي قهوتي معكِ... سأتناول الفطور معكِ... سنجلس معاً، لنعمل معاً، لنضحك معاً، لنبكي معاً، لنعشق معاً، لنمارس الحب معاً، لنتذكر معاً، لنخطط معاً ماذا نفعل، مع أن أجمل الخطط معكِ تلك التي لا يُخطط لها وأجمل المواعيد تلك التي جاءت بلا موعد.

المشي مع عمان[٢]

هناك في عمان للمكان طعم آخر وللصحبة طعم آخر، لا أتخيل عمان من دون السير في شوارع وسط البلد هناك أنا وصحبتي مشينا في شوارعها وأزقتها وحاراتها بين المدرج الروماني نحو مكتبة الأمانة نحو الساحة الهاشمية إلى مجمع رغدان القديم... وأحياناً أسير من مجمع رغدان القديم نحو الشارع المقابل حيث شارع يحتوي على بعض المطاعم التي كنت أنا وأصدقائي زبائن فيها ومجموعة من مقاهي الانترنت أو ذلك المعهد الفاشل الذي حاولت فيه أن أتعلم مهنة لم أحبّها قط... فقط لأرضي من كانوا يخططون لحياتي...

كنت أسير في الشوارع المحيطة بالجامع الحسيني أتأمل المحلات وروادها... المحلات وبضاعتها وكنت أتحسر على ملابسٍ تتمتع دمى بلبسها وأنا لا أستطيع أن أشتريها...

كان السير في شارع الشابسوغ وسوق الذهب وساحة فيصل وتأمل المحلات والفنادق القديمة شيئاً روتينياً، كان مروري وسيري في هذه الشوارع شبه اليومي يفقدني الإحساس في فشلي ووحدتي... كانت الوجوه الجميلة والشوارع المزدحمة تأسرني وتأخذني إلى حلمٍ آخر... أشعر أنني بعيد عن ذلك السجن وتلك القيود التي كانت تؤلم روحي ورغم ذلك كنت قد اعتدتها.. فصباحاً أتركها هناك على سريري ومساءً أعود ألبسها كما لو كانت حُلياً لا يراها الناس... كنت الوحيد الذي يحس

[٢] مهداة إلى صديق سرد لي معاناته.

بها، وكنت الوحيد الذي أشعر بألمها، وكنت الوحيد الذي ولد وعاش وسيموت بها من دون أن يدري أحد أو يهتم أحد.

كنت أخرج أحياناً من روتين يوم ما عندما تسمح ظروفي المالية بأن أتناول فطوري في مطعم هاشم، أطلع بعدها على الكتب المعروضة في كشك أبو علي أمام مبنى البنك العربي القديم، ثم أمشي صعوداً نحو مقهى شعبي يطل على ساحة فيصل فأتناول فيه قدحاً من الشاي ثم أصعد درجاً نحو جبل اللويبدة نحو ساحة باريس وأتخيل نفسي قد وصلت هذه المدينة الفرنسية وأنني أجلس في إحدى الجادات الباريسية بانتظار حبيبتي وأنا أعلم أنني لست في تفكير أية فتاة ولا في مخيلة أية فتاة ولا في اهتمام أية فتاة ، فأنا شاب بلا معالم... بلا مقومات... ولا أستطيع أن أقدم شيئاً كما يقدمه الآخرون.

أحياناً كنت أجازف كثيراً فأدخل سينما زهران لأختفي في ظلام المكان ووسط شاشة تبتلع أبطالاً... كأنني أستبدل ظلام الحياة بظلام هذا المكان الممتلئ بالنشوة الزائفة، والمنظر العام بمنظر أبطالٍ وهميين في شاشة بيضاء تتسخ بأقنعتهم... وأُبدل أحياناً فأدخل سينما الحمراء هناك يضيع الكثير من الوقت وأنت تتأمل شخوصاً كبيرة وأحداثاً كثيرة وأفلاماً متكررة مقطعة الأوصال لينتهي الوقت وأنت تتابع في آخر الوقت القليل من عروض مُقطَّعة خادشة للحياء في ذلك الظلام الدامس حيث لا يشاهدك أحد ولا ترى أحداً... هناك كثيرون في هذا المكان لا تسمع إلاّ همساً أو أهات أو بعض تعليقات... في الداخل ظلام دامس يُخفي رغبات

واحتياجات لا يسعنا نحن الغارقين في هذا الظلام إلاّ أنْ نخفيها عن الآخرين... وفي الخارج نور الشمس الساطع الذي يعمي أبصارنا التي إعتادت الظلمة فيخترق ذواتنا... ذواتنا المنعدمة أو المعدومة...

مجرد أن تلمس أقدامنا بقعة الضوء تختلف أشكالنا وأحاسيسنا وتتغير رغباتنا واحتياجاتنا وشخصيتنا... نعود لقيودنا المجتمعية...

كم مرة وقفت بطابور الباص أو السرفيس أنتظر قادماً لم يأتِ أو أنني راحل إلى شيء جديد لم أصله، وما كان هناك إلاّ الوجوه نفسها... الشوارع نفسها... الأماكن نفسها... وكلها متعبة مرهقة وكلها تصرخ متألمة لشدة القيود...

لقد اندمجنا بقيودنا وكأن أحدهم نسج هذه القيود بنا... فأصبحنا معاً كقطعة قماش لا تنتهي من العقد وكلما أخرجت عقدة تشكلت فيها عُقدٌ أكثر.

حبيبتي جديدة كل يوم[٣]

شيء يحمل معي ذكرياتي أينما ذهبت... إنها ملابسي العتيقة المتكررة لعدة أعوام أو أكثر تتشارك ذكرياتي مع مجموعة لا تحصى من الاوراق والكتب والملاحظات والتي فقدت بعضها خلال تبدل السنوات... أنها بُقع من الذكريات وذكريات من بُقع. حتى الحذاء... إنه الحذاء البالي الممزق نفسه الذي ناله "الهريان" يخفي على استيحاء جوارب تمزقت تارة عند أصابعي

[٣] مهداة لصديق.

من الامام وتارة عند كعب قدمي... لقد جاهدت هذه الملابس والاحذية معي، وتحملت الشتاء ببرودته القاسية وتحملت حر الصيف معي أو لعلها ملّت صحبتي لكن فرضت عليها رفقتي فرضاً، أو لعلها تعشقني لأنني لم أتخلَّ عنها عند أول تمزق أو هريان...

لا أنكر أنها تعرضت لأقسى الظروف وأصعبها منها على سبيل المثال السير يومياً من مجمع رغدان إلى الدوار الثالث أو إلى شارع وادي صقرة، تلك المسافة التي كنت أمشيها توفيراً للمال القليل الذي كان بحوزتي... وأحياناً رغبة بمشي... بالسير ولا شيء إلاّ السير... لحرق الوقت ولحرق الحزن ولحرق الهموم...

لا شيء إلاّ الخوف من العودة إلى تابوت...وعلى الرغم من تكرار المشهد أتظاهر كل يوم أنني أسير في مكان جديد في شوارع جديدة ومدينة جديدة وحتى في عالم آخر.

مفقودٌ في عمان

كنت أمشي الكثير من الليالي في ذلك الجبل الذي لا ينام، جبل الفقراء والاغنياء معاً هناك تختلط الوجوه فيتناولون الاكسجين نفسه ويتشاركون الرّصيف نفسه ويختلطون معاً من دون أن يصعد الفقراء إلى ما فوق أو ينزل الاغنياء إلى ما تحت وعلى الرغم من ذلك فإن جبل الحسين من دوار الداخلية وحتى دوار فراس كان مدينة داخل مدينة، كنت أجلس أو أمشي هناك لأتمتع بجمال وجوه عمان، كنت كمن يبحث عن شيء تركته

في وجه أحدهم، تركته هناك في طيات وجه عجوزٍ تعبة.. أو بين طيات الشعر الأبيض لرجلٍ شايب مهموم.. أو مخفياً تحت منديل فتاه عاشقة أو في حقيبتها الملأ بالمكياج والأدوية، لعله مخفي في ابتسامات الأطفال أو بكائهم وهم يتبعون أباءهم المنشغلين عنهم بالنظر لما خلف زجاج المحلات التجارية... الكل يبحث عن شيء ما، شيء يملأ فراغنا وحياتنا الفارغة... وكلنا نعود إلى بيوتنا خُلاة الوفاض لأننا هناك ذهبنا لنبحث عن شيء مفقود فنفقد شيئاً جديداً ونعود ونحن نحاول أن نتذكر ما الذي فقدناه؟

عمان بلا الحبيبة

ليس في عمان مساحة إلاّ وأنت فيها المكان والوقت والإنسان ونسمة هواء عليلة... وكل تلك الأشياء الجميلة التي في عمان... أنتِ الاجواء اللطيفة كما في فصل الربيع وتلك الورود البرية التي نشاهدها قبل دخول عمان مترامية حول جنبات الطّريق، تنسج خيوطها وتفرض نفسها بلا منازع.

أنتِ عمان وكل مرة أكون في عمان وأنتِ لست فيها لا أكون إلاّ في حضن فتاة غريبة لا أعرفها.

قناع في عمان[٤]

كنت ألتقي بهم بمحض الصدفة أو بتخطيط مع سبق الاصرار والترصد، لأتظاهر أنني إنسان مختلف، أرستقراطي من الاقطاعيين وسط مجموعة من هؤلاء وأقضي معهم ساعات من النفاق الاجتماعي وساعات أخرى من لا شيء إلاّ تدخين النرجيلة في مقاهي الرابية وعبدون أو التسكع لساعات ما بعد منتصف الليل في الشميساني والصويفية، كُنتُ أسلخ جلدي وأتظاهر بما أنا لستُ فيه... كنت كالدُّمل في عمان!! مكاني ليس هنا... وتلك البنايات الشاهقة المرتفعة جداً حد السماء... القليلة والشاذة... المتناثرة في عمان تظهر وكأنها دمامل على أنف رجلٍ عجوز...

مدينة الازدحام

أحياناً تجبرك هذه المدينة على التنقل عبر سيارات الأجرة فالشوارع لا تتسع للحافلات والحافلات لا تتسع للركاب، لا احترام لا للوقت ولا للإنسان فتستقل التكسي بعد أن تتأكد أن معك ما يكفي للمشوار ويدك على قلبك من أجرةٍ قد لا تكون في الحسبان... أول ما يصادفك هو الصوت المرتفع لقراءاتٍ لا يصغي لها! تضطر أن تمتنع عن الاعتراض حتى لا يفهمك خطأ وتدخل معه بجدال...وتضطر في هذه الدقائق أن تتحمل إشارات ضوئية تنكل بالحركة المرورية وتصطنع ازدحاما

[٤] إهداء إلى صديق.

وتتحمل أحاديث ودية مصطنعة كلها كذب ونفاق وهموم وتعاسة وكأنك تحتاج لمزيد من هذا الكلام لشخص غريب يجلس بجانبك المطلوب منه أن يوصلك لمكان ما فتكتشف أنه مل المرور من الشوارع نفسها والوجوه نفسها وأنه لا يأبه من أنت أو بالأحرى لا يريد أن يعرف من أنت يريد فقط إضاعة الوقت أو الشكوى لغريب يحمل جزءاً من الهم ولا يعلم من أنت! فمجرد نزولك من السيارة يكون هذا الهم قد ذهب، ولكنه لم يذهب... يحاول أن يكررها مع كل راكب ويحاول أن يرمي هذا الكم الهائل من الحزن والضغط على كاهلك ولكن الهم لا يزول لا يذهب مع الراكب الاول ولا الثاني ولا الثالث ولا حتى مع الرَّكب أو الازدحام أو البرد أو الحر... لماذا لا يزول الهم عند النطق به؟ لماذا لا يرحل؟ نطلقه للريح، نخبر به الغريب! سمِعَهُ أم لم يسمعه لا يهم ... المهم أن يزول... أن يحمله عنا ويغرب به بعيداً في يديه أو على كتفيه أو في محفظته على شكل بقايا أموال نرده إليه أو عبر أذنيه... دعه يزول ولكنه لا يزول...لا يزول.

فجأة أصحو من الكم الهائل من هموم وأحزان ألقاها علي لأكتشف أن الرجل ذكي وجل اهتمامه إضاعة الوقت وإطالة المسافة عبر طرق جانبية ليحسب الأجرة أعلى أو أحياناً مضاعفة... بودي أن أقول له: " قد لا أملك ما يكفي لمغامرتك الغبية، فتصطنع مشكلة معي"... آه من شعب يهوى اصطناع الكره واصطناع الكذب واصطناع العنصرية فبعضنا يكره بعضنا ونخترع من كل شيء كراهية... نكره الاتجاهات ونكره الديانات ونكره الزعماء ونكره الثوار ونكره الحقيقة

ونكره حتى أنفسنا، ويمتدح أشياء... أشياء لا يفهمها فقط سمع عنها... وأن دخلت معه بجدال لنْ تخرج منه بأي مقياس للربح أو الخسارة فتضطر أن تجامل وأن توافق وأن تخنع وأن تؤيد... فقط أوصلني إلى حيث أريد... تنظر للعداد ويمتلكك الفزع لقد تعدى المبلغ المطلوب وما زال العداد يقلب الأعداد... وما زال المكان بعيداً... وما زال الرجل يكره الأشياء ويشتم ويزبد ولا يمنح نفسه راحة من قذارة الكلام... تضع رأسك على رأسية كرسي الراكب وتغمض عينيك!! لا فائدة من النظر للعداد ولا فائدة من النظر للطريق لقد تجاوز المبلغ الذي معي وتجاوز هو الخطوط الحمراء وأما أنا فما زلتُ لم أصل للمكان والكم الهائل من الكلام أصبح ثقلاً على صدري وعلى كتفي وأريد أن أصحو الأن.

مدينة الحديث والرؤية

أخذت أتحسس حجارة المكان حجراً حجراً، أتفحصها بعينيّ موقعاً موقعاً وبيتاً بيتاً... ما زالت على حالها لم يتغير منها الشيء الكثير إلاّ القليل جداً... نمو شجيرة هناك... إصفِرار حجرٍ هناك... اِسودَّتْ أرصفة... حُفرٌ جديدة في الشارع ... وكأن المكان نحن ونحن المكان...

ما زالت السيارات القديمة تنفث دخانها الأسود وتتنافس الطّريق الضيق مع سيارات حديثة يركبها زوار وسياح ولاجئون، فمعظم شوارع عمان ضيقه وتضيق... هذا المكان يعج بمواطنين يزدادون فقراً وعدداً، ويعج بلاجئين يزدادون غِنىً وعدداً، وأنا أنظر هنا بحسرة وهناك بغصة، لست وحدي من كان ينظر فالكل كان

ينظر لكن لم نكن نرى... كانت تنقصنا الرؤية... كانت بعض الأصوات صاخبة جداً ولم نكن نسمعها جيداً... وكانت بعض الأحاديث السرية عالية النبرة وخطيرة جداً وتشير إلى تململ كبير ومع ذلك كنا نتجاهلها... والخوف كان عند الجميع من زلزال قادم... ولكن أيٌّ منا إذا سألته عما تتحدثون؟ لا أحد سيجيب... سنقول لك: ماذا؟ ماذا تقول؟ وستمشي وستسير وقبل أن تصل نهاية الطّريق ستعلم أن هناك مزيداً من الاشمئزاز... والقليل من الحديث.

أنا وحبيبة لم تعد لمقعدها

مكتبة امانة عمان الكبرى تقع في وسط البلد بجانب المدرج الروماني والساحة الهاشمية. هذه المكتبة كان لها دور كبير في تغذيتي الفكرية والثقافية، كنت ازورها مرة إلى مرتين بالأسبوع وكنت دوماً استعير منها الكتب التي أُحبّها وتستهويني... كتب الإدارة... كتب التاريخ... كتب أدبية وأشعار وروايات... كتب الفكر والفلسفة خصوصاً الدينية منها " نعم كنت وما زلت أُحِبّ الاطلاع على الميثولوجيا الخاصة بالأديان". وكانت أستعير عادة أربعة كتب وكنت انهي واحداً منها على الأقل في الباص حيث كنت أستقل باص مادبا رغدان من مجمع المحطة وكان الوقت الذي يحتاجه الباص من وقت ركوبي به لوصوله لمادبا بين توقف للتحميل والطّريق إلى حوالي الساعة والنصف فكنت بذلك انهي أحيانا كتاباً قبل وصولي للبيت. في يوم من الايام وبينما قد اكملت اختيار كتبي الاربعة عرجت

بشكل فضولي لقسم الأدب العالمي وهناك شدني كتاب من العنوان الموجود على الكعب لرواية لا اذكر مؤلفها... لعنة الله على النسيان... ولكن عنوانها كان غريباً وشدني، وكانت مترجمة لكن اذكر أن الرواية شدتني كثيراً لأحمل الكتاب من الرف وأجلس على الكرسي وكانت السماء خارجاً تمطر وكان لا بد لي من الرجوع للبيت فأنا كنت اغادر البيت مبكراً وقت الفجر للوصول للعمل في الوقت المناسب ثم اغادر العمل الساعة الثالثة مساءً وإذا حالفني الحظ أصل البيت الساعة الخامسة، والخامسة مساءً في فصل الشتاء يكون قد أرخى الليل جدائله... كانت السماء تمطر خارجاً وكان موعد اغلاق المكتبة قد اقترب فقلت لا بأس أن اطلع على هذه الرواية سريعاً واخذت أقرأ فيها دون توقف... دون أن أعير المطر خارجاً أي اهتمام أو تأخر الوقت أي تفكير، وكلما تأخر الوقت أصبح الوصول للبيت يحتاج وقتاً اطول، وخلال هذه المدة القصيرة كنت قد استطعت أن اطلع على جزء بسيط من الرواية إلى أن طلب مني أحد موظفي المكتبة أن أُنهي القراءة وأغادر فقررت أن استعير الرواية في الأسبوع القادم بعد أن أنهي قراءاتي لكتب كانت تشدني أيضاً وقررت استعارتها... وعدت بعدها بأقل من أسبوع وبحثت عن الرواية ولم أجدها فقلت لعل أحدهم استعارها ومنذ ذلك الوقت وفي كل زيارة لي للمكتبة أعرج على مجموعة الرفوف تلك استطلع وأبحث عن رواية احببتها ولم اكملها، أبحث عنها بشغف وحب ولكن... لم ترجع حبيبتي لمقعدها بعد ذلك.

تبدو مدينتي

تبدو مادبا هذه الأيام كالسيدة الصلعاء، غادرتها أزهارها إلاّ من بعض أطرافها وأزقتها تتنازع الحياة مع بقايا السجائر والأكياس السوداء وأكياس الشيبس وعلب المشروبات الغازية والمياه المعدنية، تحاول هذه الأزهار الأخيرة النضال ضد واقع مؤلم اسمه التوسع العمراني، تجدها تنمو بصعوبة بين زجاجات المشروبات الكحولية المحطمة في الأزقة وجوانب الشوارع الضيقة أو المخفية بين آثار مهملة وقد نالها دهس أقدام عاشِقينِ اختفيا خلف هذه الآثار ليُخفيا بعض القُبّل والتلامس الذي لا نجرؤ عليه في العلن.

درب موتى

كم مرة مشيت في درب الموتى حيث كنا نحمل نعوش الراحلين عنا من الكنيسة التي تربض على أعلى التل إلى المقبرة القديمة في التلة المقابلة التي ترتاح فيها نفوس متعبة بين عمودين رومانيين استخدمهما العثماني كمشنقة[٥]. النعوش ثقيلة والمسافة بين الكنيسة والمقبرة بعيدة وتمر بمنعطفات ومنحدرات منها منعطف قاسِ ومنحدران صعبان. كنت طفلاً وكنت أرى كم يعاني الرجال والشباب من هذا الحمل الثقيل ولكن لم يكن أي منهم يتذمر بل كان التناوب بينهم يريح أكتافهم وأيديهم، إلى أن يصل الموكب الذي يسير ببطء وتحت ترتيل

[٥] على ما يقال عند البعض.

بعض الرجال " ارحمني يا الله" إلى مثواه الأخير حيث يسجى الثرى إلى جانب أجداد المتوفى وأبائه، فهذا المكان الضيق قد اتسع منذ نهايات القرن التاسع عشر وحتى نهاية القرن العشرين للكثيرين ممن لم يعد أحد يحصيهم يوم أصبح الموت في المدينة التي تركت قرويتها شيئاً عادياً يتكرر كثيراً... ما عاد الأربعون يوماً من قبول العزاء والسنوات الطويلة من الحداد والتوشح بالسواد والعبوس والامتناع عن توزيع الحلوى في الأعياد وتأجيل الاعراس والاكتفاء بسماع نشرات الاخبار عبر المذياع والإطفاء المتعمد للتلفاز والتعامل بشدة مع أي وسيلة تسلية بالحدة ومواعظ التآخي ومراعاة شعور أهل المتوفي.

كانت المقبرة في الاصل موقعاً أثرياً ولعلها كانت مقبرة رومانية أو بيزنطية في منتصفها بئر وكانت القبور القديمة تحفر في الارض ويوضع فيها جسد المتوفى من دون التابوت الذي كان يؤخذ استعارة من الدير ويعاد للدير بعد دفن المتوفي... كان صندوقاً خشبياً بسيطاً... وبعد عقود ازدادت أعداد القبور بين العمودين وتوسعت المقبرة وقرر الشيوخ احتراما وإكراماً لموتاهم أن يبنوا فوق قبورهم قبوراً جديدة على شكل سراديب من حجارة وطين وأخذوا يدفنوا موتاهم هناك وما عادوا يستخدمون ذلك الصندوق الخشبي المستعار من الدير الذي حمل الكثير فيه وأصبحوا يشترون صناديق أخذت تزداد فخامة وزينة واتساعاً مع الايام، وازدادت أعداد السراديب وأخذوا يسمونها فزدقيات وأخذت هذه الفزدقيات تتزين بالرخام والحجارة وترتفع كأنها تريد أن تعانق السماء وكأن الموتى هناك أقرب للسماء وكلما

امتلأت فزدقيات عائلة أخذوا يستخرجون البقايا القديمة منها ويضعونها في التابوت الجديد للمتوفي الجديد الذي غالباً ما يكون قريباً لهذا المتوفي، أو يلقونها في البئر الروماني الذي أصبح مع الوقت قبراً مشتركاً لبقايا الأجداد.

قبل ذلك بكثير كانت المقبرة بلا سور وكان الماعز والخراف ترعى فيها نهاراً والضباع والكلاب الضالة تسكنها ليلاً فطلب الكاهن من المؤمنين وحثهم للتبرع ببناء سور حول المقبرة لحماية القبور من العبث ولاحترام ساكنيها فبُني سور حول المقبرة فخرجت بعض القبور القديمة جداً خارج الاسوار من دون قصد... تلك القبور التي لبساطتها لم يكن عليها شواهد أو لقدمها ذهبت شواهدها مع تغير المواسم والعبث وبقيت معظم القبور داخل الاسوار... وهكذا تمر السنوات ويكثر ساكنو هذا المكان إلى أن أصبح هذا المكان مدينة بأسوار تقطن مدينة توسعت جداً وأحاطت بها من كل الاتجاهات... لمئة عام بقي الآباء يحملون الأجداد والأجداد يحملون أباءهم وأجدادهم على الاكتاف ويسلكون الدرب نفسه يتقدمهم المبخرة والصليب وثم الكاهن والشيوخ والمرتلون ثم النعش ثم باقي المشيعين نحو المكان الأخير... وفي الدرب يتوقف المسير والسير وأي موكبٍ في انتظار مرور الموكب الجليل، هناك رجل طاعن في السن ينحني للصليب وهناك أطفالٌ يتوقفون عن اللعب ويتجمدون على الرّصيف، وهناك تجار يغلقون أبواب محلاتهم كنوع من مشاركة أهل المتوفى الحزن ولو لبعض الدقائق لحين مرور المشيعين، ويرافق هذا كله صوت جرس حزين يدق

استقبالا للجسد قبل دخوله الكنيسة ويدق وداعاً للجسد الذي يفارق الكنيسة والتلة للمرة الأخيرة بعد انتهاء مراسم الصلاة...

هذه الكنيسة التي شهدت زيارته الأولى وعماده وصلاته ونموه الجسدي والروحي وزواجه ورافقت المتوفى في مناسباته السعيدة والحزينة وها هي الآن تودعه للمرة الأخيرة.. ترسل الجسد في درب الموتى لمثواه الأخير وترسل روحه في درب السماء للبيت الأخير.

أما الآن وقد غيّر الموت دربه وأختار طريقاً جديدة، ومقراً جديداً... فللقصة رواية أخرى.

زهور البيادر

من سذاجتي وأنا طفل أخذت من البيت مجموعة زهور كانت أمي - رحمها الله - قد وضعتها في مزهرية في الصالون، وذهبت بها إلى البيادر أرغب أن أزرعها هناك لتنمو وتزهر حيث ملاعبنا وساحاتنا الخضراء ونحن أطفال... هناك حفرت في الارض حفرة صغيرة بأصابعي الطفولية الطرية ووضعت سيقان الزهور المقطوعة الجذور في الارض وأعدت تغطيتها بتراب البيادر الحمراء النقية وكنت قد أخذت معي زجاجة بلاستيكية فيها ماء وهناك سقيتها على أمل أن أجد البيادر في اليوم التالي وقد غطتها الزهور الجميلة التي أخذتها من مزهرية أمي. في اليوم التالي عدت إلى البيادر وكنت أتوقع بساتين زهور لأجد الزهور قد

وقعت ارضاً وقد نالها الشحوب !! وعرفت حينها أنها ميتة.

قضيت اليوم كله أبكي وكان عمري وقتها لا يتجاوز ثماني سنين أو أقل... شعرت وقتها بذنب كبير لأنني ظننت أن طريقتي في زراعة الزهور كانت سيئة...

ولكن البيادر كانت تخفي لي لاحقاً في الربيع مجموعة كبيرة من الزهور الجميلة...

بعدها نمت مكان البيادر بيوت إسمنتية وتحولت قلوبنا بما فيها قلبي لأصنام حجرية...

كم أعشق تلك الساعات القليلة حيث كنت أعيش وألهو وألعب في البيادر...

هناك تركت طفولتي قبل ثلاثين عاماً أو أكثر.

قرن الحية

من منكم لا يعرف أو سمع عن قرن الحية؟ إنها نبته خضراء كانت تنمو ربيعاً في بيادرنا وكنا نأكلها بنهم ونحن أطفال صغار من دون أن نغسلها وذلك مع نباتات خضراء أخرى كالعدس والحمص الاخضر. وأخبرني أحدهم وهو يكبرني بعشر سنوات تقريباً والذي كان بدوره وأبناء جيله يلعبون أيضاً في بيادر مادبا أن هناك ما يسمى بقرن الفيل وقرن الغزال كانوا يأكلونها أيضاً وأنا بصراحة لا أتذكر أنني كنت أكلهما أو كنت بالفعل من دون أن أتذكر! أنه ماضٍ قديم خانت ذاكرتي معظم معالمه وأجزائه لأتذكر بعضٍ الأحداث كالأحلام كنا نقضيها بالساعات الطوال ربيعاً وصيفاً على البيادر...

للأسف زمن قرن الحية ذهب بلا عودة على الاقل في بيادرنا التي كنا نلعب فيها هناك، ذهب قرن الحية ولم تبق إلاّ الحية تنفث سمومها في كل مكان وأولى الافاعي التي زاد حجمها هو الامتداد العمراني الجائر على الاراضي الزراعية فقبل ذلك اختار أجداد آبائنا السكن في مغاور مادبا عندما " لجأوا" إلى مادبا المدينة البيزنطية المعالم التي نامت قروناً طويلة فأعادوا إحياءها برائحة خبز الطابون ولعب الاطفال وتحرشات الكبار في الاعمدة الكورنثية والفسيفساء الارضية والحجارة الكبيرة المليئة بالرموز الدينية. سكنوا المغر ثم قاموا ببناء البيوت العتيقة من حجارة خرائب مادبا وحافظوا قدر المستطاع على الآثار على الرغم من قلة ثقافتهم وتعليمهم وتركوا الارض الخصبة حول مادبا بلا مساس تركوها للزراعة والرعي. ثم توسع أجدادنا وأباؤنا ببناء بيوت فوق بيوت أجدادهم وسط مادبا، هناك ولدنا وهناك طفولتنا... ولكننا للأسف نحن من تركنا بيوت أجدادنا " التراثية" وهجرناها للعفن والأشباح وطالبي المتعة العابرة والراحة السريعة... تركنا بيوت أبائنا وثيابهم وعاداتهم وتقاليدهم وهجرنا وسط مادبا بعدما نبشنا الآثار التي حافظ عليها أباء أجدادنا وعبثنا بها وبنينا عليها بيوتاً إسمنتية. أما البيوت الاحدث التي هجرناها فتركناها للمغتربين واللاجئين من دولهم لكنتهم غير لكنتنا يسكنون تاريخنا. هجرنا هذه البيوت التي ولدنا وترعرعنا فيها وفيها طفولتنا لنبني ونسكن بيوتاً وفللاً وعمارات شاهقة في الاراضي الزراعية حول مادبا فقتلنا اللون الاخضر الذي كان يزين مداخل مادبا ويلفها من كل الاتجاهات، فما عاد لقرن الحية والقمح والشعير والحمص والعدس وغيرها

أي وجود في مادبا وما حولها إلا القليل من بعض الدونمات التي تنازع للحصول على القليل من مطر السماء الذي ما عاد يهطل مثل الامس وأول أمس... ما عاد في مادبا إلاّ الحجارة وما عاد في القلب إلاّ حجارة... وطني كله يصبح يوماً بعد يوم وطن حجارة! بلا معنى بلا إحساس بلا روح وأيضاً بلا لون أخضر!

نحن تخلينا عن جمال الطبيعة وروحانيتها لنعشق أنثى حجارة من سليكون ممزوجة بمكياجات وحواجب مزيفة.

سينما سهيل

سينما سهيل...هناك كنا أطفالاً في حارتنا نمارس الكنغ فو والكيك بوكسينغ والكاراتيه على مشاهد بروس لي القتالية... ونذرف الدموع الشديدة على سخافات بوليوود.... في تلك الفترات كانت هذه الرومانسية المفرطة مع بعض المشاهد الحارة التي كنا نحاول إخفاءها عن عيوننا بأكفنا الصغيرة سامحين لبعض المشاهد بأن تخترق تلك الفراغات التي نتركها عن عمد بين أصابعنا... تلك كانت حلقة الوصل بيننا "كحارة" مع عالمٍ خارجي بعيد شديد البعد عنا.... تلك الأيام اخترقت فينا كالرصاص مواقع الطفولة البريئة التي تركناها لاحقاً لنثبت رجولتنا.... فماتت وما عادت...

سينما سهيل ما عادت موجودة ولا طفولتنا... ولا براءتنا... ولا نحن أيضاً.

حجارة مدينة

لكل حجر في المدينة اسم...
ولكل حجر في المدينة قصة... وحكاية وألم وحزن وفرح وابتسامة
حجارتنا تعبر عن لمساتنا في المدينة
تعبر عن مرورنا... منذ الطفولة وحتى مرور الموكب الأخير والرحيل
حجارتنا إما متناثرة لا معنى لها...
أو متلاصقة متراصفة تشكل معاً مبنى يقينا الحر صيفاً والبرد شتاءً... والغريب الشرير
وتحت السقف نجتمع كعائلة أو نرحب بالضيوف...
لكل حجر في المدينة اسم...وتاريخ...وهوية
لكل حجر في المدينة وطن...

سوق الحرامية

قال لي: وكأنه لا بد للمفكر أن يكون ملحداً ليكون مقبولاً لدى بعض المفكرين. أو أن يكون منكوش الشعر وبشارب عريض ليكون مقبولاً لدى بعض الأدباء والشعراء.

فأجبته: والمجانين.

قال: لعل الأمر يتعلق بالطول والعرض والارتفاع وحجم الكرش وانتفاخ الجبين.

فأجبته: ودرجة انتفاخ الخدود وحمرتها وصراع المقاعد الأولى والكشرة على المحيا والغضب المتواصل من الأخرين.

قال: وتدوير الاصابع واصفرارها دليل على استمرار التدخين.

فأجبته: إن التدخين ضروري لتظهر بمظهر قديس المؤرخين والكاتب العظيم وسط جموع الكذابين.

قال: ولا تنسَ اصفرار وسواد الأسنان المتبقية!

فأجبته: وكثرة الشيب في الشعر أو الصلع اللعين.

قال: واللحية الطويلة أو الطاقية ذات التكور الجميل.

فأجبته: لا شيء مما سبق يا صديقي. الأمر كله يتعلق بأنك دخلت سوق الحرامية وتحاول بيع منتج مطروح من قبلهم وأنت منافس جديد.

الفصل الخامس
حياة وموت

" ما زلت اؤمن أن الإنسان لا يموت دفعة واحدة وإنما يموت
بطريقة الأجزاء...
كلما رحل صديق مات جزء
وكلما غادرنا حبيب مات جزء
وكلما قُتل حلم من أحلامنا مات جزء
فيأتي الموت الأكبر ليجد كل الأجزاء ميته... فيحملها ويرحل"

جبران خليل جبران

الفصل الخامس
حياة وموت

قبور

تلك القبور التي يحفرها المنتشي وهو يمتص سيجارته، ويداه تراب، وجبينه غزيرٌ بالعرق، وثيابه رثة.... ويضع في القبور التوابيت ثم يهيل عليها التراب ثم يضع شاهداً فوق موقع الرأس.... أليست هي نفسها القلوب التي حُفر بداخلها الحب ووضع فيها اسم الحبيب في صندوق محكم الإغلاق ثم نهيل عليها تراب الأزمنة لتصبح ذكريات ثم نضع فوق موقع الحب الأول شاهداً كُتب عليه " هنا دفنت نفسي"!!!

النوم والحلم

اجتمع صديقان فقال أحدهما للآخر: " ما النوم يا صديقي إلاّ موتٌ بقلب ينبض" فقال الآخر: " وما الأحلام يا صديقي إلاّ العيش في الحياة الأخرى وفي الخيال".

فمات الثاني فقال الأول: " إنه نائم" فقال الناس:" هذا الرجل يحلم".

أتنفس

أتنفس الصعداء كل لحظة في حياتي.

لسنا أحراراً

من قال عنا أحراراً؟ لسنا بأحرار! نحن مقيدون في هذا الجسد، نحن مقيدون في هذه الارض، نحن مقيدون خارج جهنم ومطرودون خارج الجنة، نحن مقيدون مع الظل في النهار ومع أرواح الموتى في الليل، نحن مقيدون بعبادات وديانات وطقوس ومعتقدات، نحن مقيدون بالطعام والشراب واللذات والحاجات والرغبات، نحن مقيدون بالولادة والتعليم والزواج والإنجاب، نحن مقيدون حتى في الموت. في الموت نحن مقيدون بأن ينزع ملاك الموت أرواحنا نزعاً فتهيم نحو مكان تكون فيه الأرواح مقيدة وتبقى هناك مقيدة تنتظر شيئاً ما، ويبقى في الأرض جزء يسكن القبور ثم يتحلل إلى حفنة تراب وقليل من العظام.

أقنعة ووجوه

لا أعلم هل الأقنعة تخفي الوجوه أم الوجوه تخفي الاقنعة... لكن بالتأكيد خلفهما خوف وانتظار لمجهول قادم لا محالة.
إن عبثية التنقل بين الأقنعة وتبديلها اصابت صاحبها بالملل إلى درجة أنه لم يعد يُفرق بين وجهه الحقيقي

وتلك الأقنعة الكثيرة... وفي يومٍ من الأيام ترك بدون قصد وجهه كما هو ظناً منه أنه قناع... فكَرِه الناس حقيقته، ففطن لهذا الخطأ... لكن تداركه لهذا الخطأ جاء متأخراً فراح يعتذر لتلك الأقنعة التي ما عادت تنفعه ويشكرها لأداء خدماتها طول عقود كثيرة من الاخلاص والتفاني ويقبل استقالاتها ويمنحها تقاعداً مجزياً... أما وجهه الحقيقي فوجه له رسالة شديدة اللهجة كلها لوم وتحميله مسؤولية ما حدث...
يوماً ما سينسى من يضع الكثير من الأقنعة وجهه الحقيقي ويظن أنه قناع من تلك الأقنعة...

ننتظر الدور

سرت يوماً في جنازة رجل وكانت جنازة غريبة، فكأننا نجر جسده جراً إلى القبر أو نجر أجسامنا في جنازته جرّاً، فلا نعلم هل هو الميت أم نحن؟ وهل نسوقه هو إلى قبره أم قبورنا هي التي تنتظر قدومنا بفارغ الصبر؟ هل هو ذاهبٌ للجحيم أم نحن ما زلنا في جحيم الدنيا ننتظر الدور؟

تناثر

جلس على طرف جسر عبدون وهناك بين أزمة سيارات لا تنتهي لم يره أحد ولم يهتم به أحد، فالكل عبارة عن دمى تتحرك وتترامى وتنطق وتأكل بلا مشاعر أو أحاسيس أو أدنى اهتمام، بعضهم يتجه نحو

الرابع وبعضهم يتجه نحو عبدون، لا أحد يهتم به والكل مشغولون بهواتفهم وبلعنة الازمة والزحمة وضيق الوقت والحال والطّريق. أما هو فجلس على حافة الجسر ينظر الهاوية وينتظرها ويكتب آخر كلماته فكتب: "أنا أكتب!! لمن أكتب؟ لا أعلم. فقط اعلم انني أُمسك قلمي وبعض الأوراق وأسطر فيها ما جاد به قلبي الذي بدأ يضعف وتختل دقاته بين الحين والآخر. أكتب وأعلم انني اكشف بعض اوراقي واكشف الكثير من دواخلي...

أفضح مشاعري وأحاسيسي فبئس أنا الذي يكشف أسراري!

أكتب وأعلم أن بعض المقربين مني يجدونها فرصة للضحك على ما اكتبه!! فهم لا يفهمونني فكيف يفهمون داخلي! هم لا يعرفونني... فكيف يعرفون عمّا أكتب!...

وإذا كان قلمك سلاحاً يفترض به أنْ ينقض ماضياً يكتب ويسطر بالحبر ملحمة أنت بطلها ولا غيرك يعرف كيف يفهمها، إذا لماذا تدخل في حربٍ جنودك لا يؤمنون بها؟ أم بالأحرى هم ليسوا جنودك هم فقط أشخاص يعيشون قربك لأن القدر ساقهم إليك ولأنك مربوط بهم بحكم القدر!!!

لماذا تكتب وأنت الوحيد الذي تحمل فكراً يعتبره الآخرون سماً زعافاً...فلا المتدينون يقبلون به ولا حتى الملحدون! ما همني إنْ قبلني هذا أو ذاك؟ أنا بالنسبة اليهم رقم وهَمّ، وأما هُم فبالنسبة إلي مجرد اسماء أرتبط أحدنا بالأخر لمجرد اسماء!

أنا أكتب!! لمن أكتب؟ لا اعلم. فقط لأن مشاعري تقودني وفطريتي تقودني... أنا أكتب وأعلم أنْ مشاعري

واحاسيسي تطرح امامي ويداس عليها وتلعن صباح مساء فقط لأنني أُعبّرُ عن داخلي!!

أنا أكتب في غير ما يريدون فيجب أن يكون قلمي يكتب فيهم ووقتي لهم وتفكيري بما نأكل وبما نشرب وكم من الاموال استطعت أنْ أجني!!! وكم أنا فاشل في جني الاموال! لذلك فقلمي حينما يكتبُ إنما يكتب هماً لهم بدل أنْ يكتب اموالاً!! أحياناً أشعر أنهم يريدون كسر قلمي، وأحياناً أشعر أنهم يكرهون قلمي أكثر مني... كم أنت مسكين أيها القلم لتحمل كراهية بعض البشر اليك فقط لأني أكتب بك.

أنا أكتب!! لمن أكتب؟ بئس قلمي بئس اوراقي وبئس مشاعري واحاسيسي... بئس أفكاري واختياراتي... أنا لنْ أكتب أنا لنْ أكتب أنا لنْ أكتب.

وتناثرت أوراقه في الهواء وتناثر جسده على الطَّريق تحت الجسر.

أعطيني سيفاً لأقاتل

فقال له الطبيب: "أنا أسف لقد انتشر المرض في كل انحاء جسدك ولم يبق خلية فيه إلاّ وتعاني. أنا وجميع الأطباء نقف عاجزين عن علاجك. أنا اعتذر يا صديقي".

فأمعن النظر في الطبيب وقال: "إذن إنها النهاية؟"

طأطأ الطبيب رأسه وأخذ ينظر للأرض عاجزاً عن الكلام والإجابة وعيناه غارقتان في دموعٍ تنذر بعواصف لكن الوقت غير مناسبٍ للعواصف. أما هو

فأشاح بنظره نحو الأعلى وبلع ريقه بصعوبة بالغه وقال: " لعل المرض تمكن مني، لكنني لنْ استسلم بهذه السهولة. ما زال قلبي يدق وما زال عقلي يعمل".

صمت قليلاً من شدة الالم ثم قال: "حسناً سأستعد للموت كرجل ولنْ أخاف مصارعته إلى أن يأخذ انفاسي مني أو أن اخذ مقصلته".

فنظر الطبيب له وقال: "أنا اعتذر لأنني صريح معك يا صديقي ولكن لا أريد كصديق وكطبيب أن أكون كاذباً معك. لعل الوقت الآن للصلاة وللقاء الأهل بكثرة." أما هو فابتسم وقال للطبيب: " ارجوك أبقِ الموضوع فيما بيننا فأنا أريد ان تكون ساعاتي القليلة المتبقة عادية، لا أريد أن اتصنع ايماناً ولا أريد أن أُقلق أهل بيتي. ارجوك لأجل عشر سنوات عرفنا بعضنا بعضاً فيها بحلوها عند كل شفاء ومرها عند كل انتكاسة أن لا تخبر أحداً. لا أريد لأخر لحظات حياتي على الأرض أن يروني فيها لأنها ستبقى معهم طوال الحياة وتزورهم في المنام فتقلق راحتهم، دعهم ينامون وغداً سيستلمون بقاياي ويضعونها في باطن الارض حيث تسكن الأجساد المنهكة".

ثم نظر لصديقه الطبيب وقال:" نعم إنها عشر سنوات مرت علينا ورأيتك فيها أكثر مما رأيت فيها زوجتي وأولادي، حتى أنني حفظت تفاصيل حياتك وتجعدات وجهك القديمة والجديدة أكثر مما احفظ من تفاصيل وجه أولادي وهم صغار ورأيتك تكبر وتهرم معي ولم أر أولادي يكبرون".

فابتسم الطبيب وقال له: "وأنا عرفت عنك الكثير وأكثر مما ينبغي يا صديقي العظيم ولكن اطمئن أسرارك في

بئر عميقة جداً " فقاطعه ضاحكاً: " لا يهم الآن إن كشفت هذه الأسرار... لقد انتهى كل شيء ولنْ ينالوا مني إلاّ بعد أن ينال الموت" صمت ثم قال: " أتعلم!!! أريد لهذه الاسرار أن تباح وأن تنكشف، أريدها أن تظهر للعلن، أريد قبل أن أرحل أن أكتبها للعالم ولأولادي ليعلموا من أنا، هل تستطيع أن تساعدني؟ إنني كما تعلم لا استطيع أن أكتب الآن" فقال له الطبيب مستغرباً: " لكن هذا يا صديقي سيمثل خطراً على حياتك" فضحك ضحكاً شديداً وأما الطبيب فنظر للأرض خجلاً لأنه يعلم أن لا خطر شديداً عليه إلاّ خطر المرض الذي لا شفاء منه والذي تمكن منه وحياته الآن على المحك ليس بسبب احد إلاّ مرض يتربص بدواخله ويقتله بكل نبضة قلب وبكل حركة وفكرة ورمش عين، فقال له الطبيب: " سأكون قلمك والورقة والأذن والكتابة، فقل لي ما تشاء وسأكتبه لك وسنبدأ إذا اردت هذه الليلة بعد أن تنتهي مناوبتي وطالما أنك ترغب بكتابتها فإنني أعدك بنشرها على حسابي وسأرصد ارباحها لأولادك" فقال له: " كلا أنشرها وما يأتي منها اجعله لمن يشكو الحال من المرضى".

في المساء بعدما هبط الظلام وانتهت مناوبة الطبيب دخل الغرفة وبيده قلم ومجموعة أوراق والعتمة قد انتشرت في ارجاء الغرفة فأغلق الباب خلفه وأخذ كرسياً من زاوية الغرفة ووضعه بجانب السرير وجلس وهو يقول: " أأنت نائم يا صديقي؟" فقل له: " لا فأنا استعد لمعركتي " فأضاء الطبيب ضوءاً خافتاً لمصباح صغير معلق فوق السرير يضيء عتمة الغرفة وقال: " أنا جاهز يا صديقي لكي تملي علي ما تريد".

فبدأ يتحدث فقال: " ترددت كثيراً في الكتابة، ليس لأن الكتابة صعبة فأنا كاتب، بل لأن الظروف لا تسمح بأن أكتب... فها أنا أكتب عبر يد وقلم صديق لي. أريد أن أتحدث عمّا يجول في خاطري.. عمّا حدث في تلك الاوقات البعيدة جداً وعن تلك الاحداث البعيدة القريبة، عن أمور يجب ألاّ نتحدث عنها وفيها، ولا أن نكتبها أو نقولها، ولا أعلم كيف سيستطيع صديقي أن ينشر هذا الكلام في كتاب؟ فهذا النوع من الكتب وأسلوبه وما فيه من خفايا ليس مسموحا به، حيث الخروج عن المألوف ممنوع وحيث الايمان والخنوع يجب أن يسود، برضاك أو بعدمه، أنت إنسان مؤمن يجب ألاّ تبوح بما كنت تفعله في السر أو العلن. في هذا الكتاب سأكشف أسراراً خطيرة جداً لا يعلم بها إلاّ القليلون وحيث الاسرار خطيرة جداً والبوح بها أخطر وهي أقرب للكفر في العلن ومن مارسها وقام بها وجب عليه القتل والحرمان والاندثار من وجه البشرية. لم أكتبها بخط يدي ولم أسطرها إلاّ وأنا على فراش موتي فلعل الموت يسارع بقتلي قبل أن يقتلني الاخرون، إنها ساعات تفصلني عن رحيل بعيد، عن آخر رحيل لي، عن الرحيل الذي بعده سأترجل عن حصاني وارتاح في قبرٍ يضم عظامي ولكنه لنْ يستطيع أن يتحمل أسراري ومكنوناتي فلذلك سأطلقها حرة هي وأفكاري ومعتقداتي وحياتي الشخصية، وللقارئ العزيز أن يحكم بعدها بحرية".

" قررت أن أكتب عبر صديقي على الرغم من كل هذه الظروف الصعبة، وقد كشفت له منذ ظهور أعراض مرضي الخطير أحد أسراري وكنت أريد بكشفي لسري أمامه أن يقتلني هو قبل أن يقتلني مرضي أو أن يصل

خبر سري الأول البسيط بالنسبة إلى باقي أسراري لأي مجموعة تقتلني قبل أن يقتلني المرض والالم، لكنه استقبل سري الخطير الأول برحابة صدر واستمر بعلاجي وهكذا مع تقدم المرض واستمرار الألم وشدة الوجع كنت افصح له عن سر جديد وفي كل مرة أخطر مما سبقه وفي كل مرة كنت أجد أمامي ملاكاً يحمل أسراري ولا يبوح بها ويتعاطف معي ويحن علي فلم يعد طبيبي ولا معالجي بل أبي وأخي وصديقي الذين لو قلت لهم عن أبسط اسراري لتشاركوا في تعليق مشنقتي ولكان أحدهم شانقي وقاتلي. وهكذا قررت أن أكتب فأنا أريد أن أُخرج هذا المارد الضخم من سجنه الصغير في جسدي النحيل المريض المنهك. لقد أكلني المارد مع مرضي وهو يريد الخروج والحرية فقررت أن امنحه ما يريد ليخرج عبر روح كلماتي التي يسطرها صديقي في هذه الصفحات لعله يرتاح ويجعلني ارتاح قبل أن أموت، لعله يخرج ويرتاح هو وأبقى أنا أسير المرض والحزن والألم والوجع على سرير نزاع الموت هذا، لعلي أبقى صورة لشيء لا يوحي بحقيقته معلقة على جدار صامت ينسى الآخرين أنه موجود وأن الصورة موجودة وأن الجدار نفسه موجود. لعلي أبقى صورة لشيء لا يوحي المظهر الخارجي بما في الداخل إلاّ بأقل القليل. سأكتب وسأتحدى، أتحدى نفسي الذاهبة للموت قبل أنْ أتحدى من هم حولي وقبل المجتمع وقبل من تأثروا وسيتأثرون ببوحي بأسراري، سأكتب لأجلي ولأجل اولادي ولأجل كل من يحق لهم الكتابة ولا يملكون القلم والورقة والحدث والحبكة والالم والمعاناة، سأكتب لمن هم أبطال الرواية ومن هم في بدايتها ونهايتها، سأكتب لأجل القارئ النهم الذي لا يستطيع أن

يترك الكتاب من يده إلاّ والنهاية تداعب مشاعره وتريح باله من تفكير طويل يمنعه من النوم ليلاً. سأكتب لعله يأتي يوم قد يفهم فيه إنسان موقفي ويقدره ويحترمه، لا أعلم إن كان هذا سيحدث أم لا لكنني سأطلب من صديقي الذي يسطر بقلمه كلماتي أن لا ينشر كتابي هنا في بلاد القمع والمقص والجلاد، بل لينشرها هناك حيث الحرية تشع صباح مساء ولا تغرب ليلاً ولا عند تلبد الغيوم وسقوط الامطار، سأكتب على الرغم من أن الوقت ليس لي والقلم ليس لي والاوراق ليست لي والزمان ما عاد لي والحب والحرية والفرح والسعادة ليست لي، سأكتب وأنا أعلم أنها لحظاتي الأخيرة وأنه قد يكون لا غد لي. سأكتب لتلك البلاد البعيدة أن النصر لي، سأكتب ولو بلغة لا يفهمها إلاّ الحر الابي واقول للقلم وللورق أن لا تخونني ولا تنتهي وأن تمنحني هي وأنفاسي الأخيرة وقتاً قليلاً بعد لإنجاز مشروع كتابٍ هو الأهم في حياتي في سطورٍ كل سطر منها يحكي قصة وسراً من أسراري".

" أيها الأباء والأمهات لا تحزنوا أن تقرأوا هكذا كتاب فلعل القليل منه يفيدكم في تربية اطفالكم"

" أيها الاطفال والمراهقون والشباب لا تخافوا أن تقرأوا هذا الكتاب كثقافة عامة وكإطلاع على معلومات مختلفة وإذا لم تخرجوا بمنبهات كثيرة في أثناء قراءة كل صفحة من الصفحات فخذوا من الحياة نفسها ما يكفي من منبهات وخذوا الحذر والاحتياط فالحياة ملك لكم وبأيديكم تصنعون لكم مستقبلاً ولا أجمل..."

" الحرية لكم فإن فقدتموها فأصنعوها بأيديكم وأعلموا أن العالم ليس بريئاً وأن من يضع أصبعه في وجوهكم

وعيناه حمراوان يرى نفسه فيكم وأن من يبتسم في وجوهكم ويستر عيوبكم فإنه في الحقيقة ليس إلاّ شيطاناً..."

" أيها المبجلون أصحاب المقامات الرفيعة والعروش الوهمية نحن صنعناكم ونحن من اصعدكم للعروش واجلسكم عليها ونحن من نقشكم آلهة واصناماً وعبدناكم... وفي الأخير أشركنا بكم آلهة كثيرة، وبعد هذا ما زلنا نكذب ونقول نحن نعبد الإله الذي هو الله".

" كم نحن كفرة!!! كم نحن جناة!!!".

وبلع ريقه بصعوبة فترك الطبيب القلم والورقة وتناول كأس ماء ورفع رأسه ورشف القليل من الماء بصعوبة بالغة ثم أراح رأسه على المخدة وأما الطبيب فعاد يكتب ما يقوله:

" أنا خسرت الكثير وقبلها خسرت نفسي، ولم أرَ نفسي إلاّ فاشلاً وكنت أخاف أن يكشف هذا الفشل أهلي، وأصدقائي وزملائي، وحتى الخضري وسائق التكسي، واللحام والحداد وحتى أخاف أن يراه من سيقوم بلف جسدي وتكفيني. وأما ما ترونه من نجاحات وإنجازات في حياتي فهي ليست لي، هي من تصّنعٍ فعلتهُ لأظهر للعالم وللناس شخصية ليست شخصيتي. من يرَ الأمور من الخارج يتعجب ومن يرَ الأمور من الداخل يرَ الضعف والخوف، إنها حياتي المغلفة بورق جميل وداخلها قطعة طعمها ليس بلذيذ".

" نعم أيها القارئ ستعرف الكثير الكثير وسيمتلئ قلبك الصغير صدمات من هذا الشخص الذي قد ظننته يوماً ما عظيماً، فبعض القراء سيكرهونني وبعضهم سيشفقون علي، وبعضهم سيختارون أن يتوقفوا عن

القراءة، والبعض الفضولي سيقرأ وسيجدها فرصة لحديث شيق. كلٌ سيحكم علي بمنظاره الخاص، هذه هي حال الناس، كل إنسان ينظر لنا بمنظاره الخاص ويشكل رأيه فينا ولكن يبقى الإنسان كما هو، إنساناً مهما حاول أن يكذب أو أن يتظاهر أو أن ينمق تصرفاته أو أن يجعلها اجتماعية أو مقبولة لدى المجتمع. وفي الخفاء يفعل ويمارس ما لا يرضاه المجتمع. كل منا يحاول إرضاء المجتمع وهكذا أنا ايضاً فعلت، إرضاء الكثيرين ولكن لا أحد منهم الآن وأنا على فراش الموت حولي. لهؤلاء أقول: كنت أحاول أن أُرضيكم وأن أكون أمامكم الشخص المثالي الإنسان المطلوب، ولكن كنت أُخفي عنكم أسراراً خطيرة وها أنا أقولها لكم... "

ثم رفع يده لأعلى وهو يصرخ للطبيب: " أعطني السيف أيها الطبيب لقد جاء... لقد جاء يريد خطف روحي وأنا منشغل بالرواية".

أما الطبيب فوقع القلم من يده والأوراق تناثرت على الارض وهو يهم لمساعدته وكان وهو يصارع الموت يضرب بيده يميناً ويساراً وكأنه ممسكٌ بسيف يقاتل أحداً ما... لقد جاء يخطف روحه... واستمر الصراع للحظات وهو يصرخ: " لا لنْ امنحك روحي بالمجان... لا لنْ تخطفها مني بسهولة...".

" قاتلني أيها الجبان، قاتلني أيها الصعلوك".

كانت الاجهزة في الغرفة المشبوكة والممدودة في جسده النحيل كلها تصدر أصوات الإنذار القوية والمزعجة ... وفي لحظات امتلأت الغرفة بالأطباء والممرضين يلتفون حول السرير يحاولون تهدئته وينظرون للطبيب وينتظرون أوامره...

أما الطبيب فبقي ينظر لصديقه وهو يقاتل ويعلم أنها النهاية...

وأما هو فمع ضربات يده يميناً ويساراً وجسده الذي كان يتحرك بعنف... هدأ أخيرا وصمت صوته وثم هوت يده على صدره فوق ذلك الجسد المحارب النحيل وساد الصمت في الغرفة والجميع ينظرون بحزن وألم على ذلك المريض وقد ارتاح الآن وأخذوا ينسحبون من الغرفة بوقار واحترام وأحدهم قد أطفأ الاجهزة عن اصواتها المزعجة التي تنبه السامعين أن دقات قلب هذا الإنسان قد خطفت...

وأن ساعة المحارب قد انتهت...

وأنه على رحيل...

وأن الأسرار لم تكشف...

الراحلون

أيها الراحلون عن الدنيا!

عن مملكة الخوف واليأس والقنوط والموت...

انتظرونا فنحن قادمون... انتظرونا فنحن سنأتي لنقيم معكم وبينكم ولو بعد حين.

يؤلمنا أننا سنترك وراءنا من نحب ولكن يسعدنا أننا سنجد هناك بعضاً ممن نحب لم نرهم منذ مدة.

أم لا لقاء هناك؟

أننا نتخيل أن اللقاء هناك أجمل من هنا... فليبقَ الخيال طالما أننا راحلون إلى حيث لا نعلم.

لم أمت بعد

لا...لم أمت بعد...

قد أكون فارقت الحياة لكن قضيتي ما زالت قائمة... ما زالت واقفة وقوف الشجر تتجه للسماء تريد أن تلامس الشمس نهاراً وتعانق القمر ليلاً...

تريد أن تصادق النجوم وترافق الشهب في رحلتها الأخيرة وأن تهمس حقيقة الأرض في أذن الغيوم المسافرة وأن تعطي أسرارها بالمجان مع الرياح التي ستذهب بعيداً عن المكان...

تريد أن تتلقف المطر، وأن تترك بين ضلوع أغصانها بيوتاً للحمام ومساكناً للعصافير...

تريد أن تظلل تحت ساقها الحيوانات الرقيقة وحتى المتوحشة ...

وأن تترك مكاناً حتى للحشرات أن تأكل من أوراقها...

لا لم أمت بعد...

حياة

قال أحدهم: "لقد عشت حياتي حتى الآن هارباً من شيء... ما هو؟ لا أعلم... لدرجة جعلتني أهرب من كل شيء كالجبان".

فأجاب الآخر: "لقد عشت حياتي حتى الآن جائعاً لشيء ما... فأكلت الكثير من الأشياء وذلك الجوع الذي داخلي لا يشبع".

غيبوبة حب

ولمسَت يدي، شعرت بلمستها كأنها تيار كهربائي دب في كل أنحاء جسدي...
نعم لوهلة ظننت أنني أشعر بجسمي... كل جسمي... وكأن الروح عادت تسكنني ثم خفت وصمت كل شيء في جسدي وعدت لا أشعر باي شيء إلاّ بوجودها قرب سريري وأشعر أنها تتحدث إلي ولكن ما لا أعلمه لماذا لا أستطيع سماع صوتها...
من قال لكِ إنّي على قيد الحياة؟
أنا لست مقيداً بحياة ولا بموت... أنا في المنتصف...
أنا لست مع الأحياء ميتاً ولا مع الأموات حياً ...
لست مع أي حضارة بائدة أو في ريعان الشباب...
أنا فقط مقيدٌ هنا في غيبوبة الحب وفي قراره...
أنا لست على قيد الحياة ولا ينفع معي لا دواء ولا ميزان حرارة...
فقلبي لا ينبض وعقلي لا يعمل ولا حتى إشارة حياة في شاشات المراقبة... ولا أي إشارة!
دعيني الآن... سأغفو قليلاً لعلي أصحو من الحلم...
وما زلت أحاول النهوض من موتي لكن رأسي ليس برأسي ويديّ ليستا بيديّ ولا قدماي بقدميّ...
أنا لست أنا... ومع ذلك أحاول النهوض وأحاول أن أنتقل من حلم إلى حلم آخر لكن هذا الحلم قوي...
يطفو على كل أحلامي العابرة فتحول للحظة إلى كابوس ... وأقول لنفسي يكفي... وأحاول أن أصحو... لكن أنا في غيبوبة كبرى اسمها غيبوبة حب.

في الحرية والحياة

من يحب الحياة يحب كل شيء فيها ومن يكره الحياة لا يرى فيها إلاّ نفسه.

لماذا أكون نسختك ولماذا تكون نسختي؟ ما أجمل أن تكون أنت كما أنت وما أجمل أن أكون أنا كما أنا.

كم أنا مميز أيها الصديق باختلافي عنك وعن الآخرين، كم أنا مميز بطبيعتي وما أنا عليه، قبلت به أم لم تقبل...فلماذا تريدني ظلاً لك؟

العصافير

لنْ يتعب الآخر من قص أجنحة العصافير وزجها في أقفاص فقط ليمنعها من الغناء لان أصوات العصافير تؤلم كبرياءه.

الفصل السادس
يُحكى أنَّ إلـهاً جَديداً

" دينكم رياء ودنياكم إدعاء وأخرتكم هباء فلماذا تحيون والموت راحة الأشقياء"

جبران خليل جبران

الفصل السادس
يُحكى أنَّ إلـهاً جَديداً

عودة الإله

يُحكى أنَّ إلهاً قديماً جديداً من الآلهة قرر أنْ يعود للأرض من رحلته الطويلة في الفضاء وعندما عاد هبط في بلاد العرب على جبلٍ فيه قصر ضخم فظن الإله أنه جبل أوليمبوس بعد الترميم ففرح الإله كثيراً وقرر أن يأخذ جولة في أرجاء المعبد وعندما دخل إحدى الغرف شاهد رجلاً ينام على سرير كبير فقال لعله كبير الكهنة ويرتاح بعد معاناة وتعب شديد في الصلاة والعبادة، وتركه الإله وأخذ يتجول في أنحاء المعبد وأخيراً عاد للرجل فوجده ما زال نائماً فظهر له في الحلم وقال له: " أأنت كبير الكهنة؟" فقال الرجل: " لا أنا وزير الإعلام! " فقال له: " وما هو وزير الإعلام؟ " فقال له: " كاذب كبير" فقال له: " وما الفرق فالكهنة ورجال الدين يكذبون على ألسنتنا، أتصبح نبياً لي في هذا الشعب؟".

فقال له: " نبي! أيحقق هذا أموالا طائلة؟"

فقال له الإله: " أنت وقدراتك! قم وبلغ هذا الشعب بأنني إلهم وأنني سأوحي لهم بوحي جديد".

فقال له الوزير:" وحي؟ كتاب؟"

فقال له الإله: " نعم كتاب، فيه شعائر وطقوس وقواعد وتعليمات".

فقال له الوزير: " وتريدني أن أكتبه وأنشره بين الناس".

فقال له الإله: " نعم".

فقل له الوزير: " إذا تحتاج أولاً إلى أخذ موافقة وزارتي وثم دائرة المطبوعات والنشر وكافة المؤسسات والدوائر والوزارات المعنية ولا تنسى الدمغات والطوابع والتوقيعات. ثم عليك أن تمرره على مدقق إملائي وقواعدي ولا تنس أن تستشير في نشره المتخصصين واساتذة في الجامعات وهل لك عدد لا يحصى من القرّاء وهل..."

فرفع الإله الجديد يده وقال: " صمتاً أيها الوزير!... لا أريد أن أبعث رسولاً ولا أريد أن أوحي وحياً...

سأعود من حيث أتيت".

ملائكة وشياطين

المجرمون ملائكة وكثير من الملائكة مجرمون، إبليس كان ملاكاً وكثير من الملائكة كان في قلبهم إبليس صغير لكن عندما شاهدوا ماذا حدث مع إبليس خافوا وتراجعوا.

نعم لقد كان الشيطان ملاكاً وبمحض إرادته وبفضل تصرفاته تحول إلى شيطان رجيم.

كلٌ منا كان شيئاً وبمحض إرادتنا وبفضل تصرفاتنا أصبحنا شيئاً آخر وبين القديم والجديد فجوة ضخمة لا يمكننا أن نتخطاها... قطعنا الجسر لمرة وانهار هذا الجسر للأبد.

مذبح الإله

يُحكى أنه في تلك البلاد البعيدة جداً حيث تحتاج لأن تقطع البحر الكبير وتسير عبر وديان سحيقة وجبال شاهقة وصحارى شاسعة وغابات ماطرة كان هناك مذبحٌ لإله مجهول نسي الناس اسمه وشكله. وكان الناس الذين يعبدون أصنامهم يمرون من أمام مذبح هذا الإله من دون أن يعيروه اهتماماً فكثرت عليه الأوساخ والقاذورات والغبار إلى أن مر من هناك رجلٌ نحيف بملابس ناسك وقال لهم: " أنا أتيت أبشركم بالإله المجهول الذي تركه أجدادكم"... فجلس تحت المذبح وحوله القاذورات واجتمع الناس حوله وقال لهم: " إنه الإله الذي أخذ قاذوراتكم وأوساخكم وترك لكم ولأصنامكم النظافة".

ضحايا الإله

إنهم مجرد أرقام... ضحايا... لا قيمة لهم.

اسماؤهم ستنسى قريباً كما نسينا اسماء الذين قبلهم...

أنهم مجرد أرقام...أنهم مجرد ضحايا...قدمناهم على مذبح إله...

وما زلنا نتشدق باسم الله ونحن نقدم ضحايانا لإله ليس هو الله.

كان هناك

كان هناك في مدينتنا على التلال الجاثمة فوق الصدور أغنياء ينهشون اللحم ويشربون حتى الثمالة وصرير أسنانهم الذهبية تطحن القوت...

وهناك أيضاً في القاع حيث تكثر الاوجاع كان الكثير من الفقراء يتقاسمون النار وبقايا من ضوء بلا نهار وصرير أسنانهم تطحن الجوع وتثير الرعب في النفوس...

وهناك في منتصف الطَّريق يربض معبد صغير... يهبط إليه الاغنياء يصلون، ويصعد إليه الفقراء يتأملون... صلاة وتأمل كل يوم بلا توقف...

ويصعد الأغنياء يريدون المزيد ويهبط الفقراء جوعى البطون... والرب ينظر من بعيد، لم يكتفِ... يريد المزيد!

إلهكم

جاء رجلٌ يوم إلى مدينة ونزل في أحد نُزلها وأخذ يراقب الناس فوجد في المدينة معبداً ضخماً قبابه من الذهب وأعمدته من الفضة والنحاس وهيكله مغشى بأنواع المجوهرات والسجاد من أفخر الانواع والكهان والشيوخ يلبسون تيجاناً ذهبية، أما عامة الشعب فجوعى وفقراء.

لاحظ الناس تردد هذا الرجل على معبدهم فقالوا له: " قم وأسمعنا ماعندك من حكم" فقام إلى المنبر وقال:

" إلهكم يحمل الكثير من الكراهية لأنه يحضكم على القتل.. وإلهكم ليس له إذنان لأنه يصم آذانه عند سماع نداءات الجوعى والثكلى والمحرومين منكم فقط لأنه يشعر أنه ليس من العدل أن يحصل كل منهم على القليل الذي يسد رمقكم ويمنحكم الدفء والأمان...

إلهكم صعب الإرضاء لأنه ينسى أنكم صليتم قبل قليل فيطالبكم بالمزيد من الصلاة بعد قليل...

إلهكم يمنعكم من التفكير وتشغيل العقول... أنه عاطل عن العمل ويريدكم عاطلين عن الحياة...

إلهكم يمنعكم من معارضته لأنه إله قاسي القلب وعنيد ولا يطالب سوى بالطاعة...

إلهكم دكتاتور لأنه يطلب منكم أن تؤمنوا به فقط وقد قاد انقلابا على مجمع الآلهة وقتل بحد السيف كل الآلهة عندما أولم لهم وليمة".

الكافرون

أنهم كالأمواج الهادرة والنهر سريع الجريان يذهبون للصلاة، هناك يمارسون ما تعلموا، كالببغاء يرددون ما حفظوا، وكدمى مصنوعة من بقايا الثياب الممزقة يتحركون كما طلب منهم أن يفعلوا، مربوطون بخيطان وهي بدورها مربوطة بأصابع شخص مخفٍ يحركهم كيفما شاء وهو نفسه من علمهم ترديد الكلام وحفظه ونطقه من دون أدنى فهم أو معرفة أو غاية. أين قلوبهم؟

إنها متعلقة في شيء في الخارج. أين عقولهم؟ معطلة لئلا يقال عنهم إنهم خرجوا عن القاعدة. ففي بلادي مطلوب منك أن تكون شبيهاً بالجميع في الأكل والشرب والمضاجعة وشرب الشاي والقهوة وحتى التدخين وشرب الخمرة، وأن تمارس علناً أنواع الولاء والوطنية والزواج والتدين والثقافة وفي الخفاء يمكنك أن تمارس أنواع التمرد والمعارضة والخيانة والفساد والسرقة.

حتى غدونا جميعاً بوجهين... بقناعين... بشخصيتين... بهويتين...

واحدة يحبها الناس ونكرهها نحن.. وواحدة يكرهها الناس ونخافها نحن...

كم نحن منافقون!

كم نحن سذج ومراؤون!... كم نحن تعساء وممثلون!

حتى فرحنا وابتسامتنا تقليد وضربٌ حزين من لا شيء.

نحن خيال بشر... نحن أشباه بشر.

إيماننا كفر وكفرنا إيمان...

من منا ينطق فيقول: " لا يهم رأي الناس... المهم ما أراه في إيماني وفي كفري".

الباحثون عن إله

يُحكى أن أهل قرية أخذوا يبحثون عن إله لهم، فظن البعض منهم أنَّ إلههم موجود في الجبال فأخذوا يُبشرون به هناك... فصعد أهل القرية إلى الجبل الكبير يبخرون ويقدمون الذبائح ويصلون ويصومون ثلاثين

يوماً فلم يستجب لهم إيّ إله، فقامت جماعة منهم ودعت إلى وجود الإله في الوديان... فوقف اهل القرية عند الوادي الكبير لمدة ثلاثين يوماً أخرى وأخذوا يصرخون بصلواتهم يدعون الإله لمساعدتهم فعادت أصداء أصواتهم لهم خالية من وحي، فعاد أهل القرية لبيوتهم حزانى وناموا وهم يبكون.

في الصباح الباكر قام أحدهم ونادى في أهل القرية أن الإله يسكن في النجوم والكواكب فخرج آخر وقال لا بل هو في البحر ودار بينهما نقاش حاد فعاد المبشرون يقولون إن الإله في الجبل الكبير لكنه لم يرضَ عن صلاتنا وذبائحنا، فقام عدد من المبشرين الآخرين وقالوا لا بل الإله موجود في كهوف الوادي الكبير ولكن لأننا لم نقدم له ذبيحة لائقة لم يسمع لنا ولم ينصت ولذلك أعاد لنا أصواتنا فهو لم يرضَ عنها... ودار صراع بينهم ما لبث أن قاموا يتقاتلون ويقتلون بعضهم البعض إلى أن تعبوا وأنهكوا، فجروا موتاهم ودفنوهم كل طرف في زاوية من زوايا القرية وذهبوا وناموا تلك الليلة وأيديهم وملابسهم ملطخة بدماء بعضهم بعضاً.

في الصباح الباكر قام كل طرف يبني فوق أضرحة موتاه معابد ومذابح...

وكل يوم يزورونهم ويبخرون لهم ويبكونهم ويتلمسون شواهد قبورهم... وهكذا أصبح هناك آلهة ومعابد وشرائع ومذابح ووحي وكتب مقدسة...

من يبحث عن إلهه وسط رجال الدين أو في بيوت إسمنتية أو حجرية أو على شجرة أو تحت التراب أو في السماء أو في تماثيل أو صور أو في كتب أو رموز أو مخلفات أثرية ما هو إلاّ أحمق كبير...

ابحثوا عن الرب في الرحمة والرأفة، في الحب والإنسانية لان الرب الحقيقي في القلوب ملموس.

دعاء

أيتها الآلهة في كبد الجبال البعيدة...
مختفية عنا
ما بالكِ بعيدةً جداً...
وصامتة وغير مبالية؟
وكلما صلينا لكِ أكثر شعرنا بأنكِ بعيدة أكثر!!!
أيتها الآلهة..."حلي عنا"

آلهة ودماء

يقال إن أحد ألهة الإغريق كان يتغذى فقط على دم العذارى وكان دم عذراء نقية واحدة تكفيه لمدة عام كامل وكان العبيد يختطفون فتاة من إحدى القرى البعيدة كل عام ويذبحونها عند قدمي هذا الإله فيشرب دمها... وكل عام هكذا إلى أن مل الناس خطف الفتيات وذبحهن على مذابح هذا الإله الجشع فقرروا التخلص من هذا الإله فجمعوا بعضاً من عصير الرمان والكرز والفراولة والتوت الاحمر وخلطوه مع نبيذ أحمر ثم وضعوه في كيس من أمعاء غزال وربطوه على عنق فتاة وجلبوها للإله فجز أحدهم عنق الفتاة وهو في الواقع كان يجرح امعاء الغزال فأخذ النبيذ المخلوط بالعصير ينزف وأخذ الإله الشره يشرب ويشرب ويشرب بلا توقف ظناً منه

أن ما يشربه دم... وأن هذا الدم لذيذ جداً وأكثر نقاوة وبقي على هذا الحال إلى أن وقع الإله مغشياً عليه من شدة السكر وللوقت اجتمع العبيد حوله وأخذوه وربطوه يريدون قتله لكن أحدهم قال لنمنحه فرصة فإن توقف عن شرب دم العذارى اطلقناه وإن بقي على حاله نقتله، وفي المساء قام الإله من سكرته وقال: " لمَ أنا مكبل اليدين؟ إن ما شربته اليوم كان الاكثر نقاوة والالذ طعماً ولكنه لا يشبعني فهل جلبتم لي مثله كل يوم؟" فنظر الناس بعضهم لبعض وفرحوا وفكوا رباطه من دون أن ينطقوا له بحقيقة الأمر...

وكل يوم كان إلههم يسكر وفتاتهم تعيش وديانتهم تستمر وتنتعش وتكبر.

كيف ترضى إيها الإله أن يموت أطفال على مذبحك الحجري لترضى وتنصر الجنود؟ فرد علي صوته من بين دماء الاطفال: ومن قال لك إني رضيت؟

من وحي الآلهة

لقد أوحت إليّ تلك الآلهة أن أكتب هذه الجمل ولا أنكر أن تلك الآلهة كانت تعاني من سكر شديد عندما أمرتني بالكتابة:

نحن نخاف منحوتاً من خشب نظنه سيأخذ مكان إله، وفي الواقع نحن نصنع من انفسنا أصناماً تأخذ أدوار آلهة وانبياء، كذلك نحن من ننصب الآخرين آلهتنا ونصنع لهم تماثيل نتبارك بها.

كأنني إله يحطم أوثاناً... أكره أنا التطرف والجهل والإرهاب... أنا إله مصنوع من جبلة إنسان.... من اقترب مني يصاب بعدوى الإنسانية والعلمنة والحريات.

لست من الذين يعبدون أصنام غيرهم، ولا أنا ممن يتعبدون لآلهة صنعها بشر...

من يبحث عني فليبحث عن قصاصات الورق التي نثرها الزمن ولعبت فيها الرياح... وليحاول لصق هذه القصاصات إنْ استطاعَ عندها سيعرف من أنا.

كم ألم أحدثته في حجري لانقش فيه تمثالاً من إله إغريقي جميل يتسابق النقاد لامتداحه متناسين أن الحجر يئنّ تحت ضرباتي ولا يزال ينزف دماً وتراباً وحصاة من دون أن يظهر عليه حزن أو شقاء... فقط جمال خارجي نمارس فيه وبه عبادة الجمال.

إن الإله الذي بداخلنا يصرخ ألماً من فرط الحب ومن خيانة المؤمنين، وكلما مارسنا طقوس العبادة اشتد الالم واشتد الصراخ، لذلك نحن نعذب ذواتنا عند كل قصة عشق.

اخضرت أوراقي في منتصف الشتاء لأنني سنديانة وإله... أنا نبي يخرج من رحم الإنسانية لا يقف امام وجهي أية انانية.

اخضرت أوراقي في منتصف الشتاء فلا يأس عندي ولا أهمية لأية قضية... ممشوق أنا حتى السماء أظلل حباً وعشقاً لاثنين امتهنا الهرب من الدمار...

للعاشقين أُهدي وردة أنزعها من جوفي الأخضر... أيها القاطع اغصاني لنْ تستطيع قتلي فأنا سنديانة أنا إله...

المعبودة

كانت معبودتي وعابدتي، تمارس طقوس الصلاة لأجلي وأمارس طقوس الصلاة لأجلها، كانت إلهي وكنت الرب بالنسبة إليها ولا خطيئة تحسب لها ولا خطيئة تحسب لي. ولكن عندما اصبحت ديانتي شعبية دخل الجند مقدساتي وعاثوا فساداً في هيكل قدسي ومنعوها من قدس أقداسي واعتبروها عورة واتهموها بالكفر والزندقة. كيف يضع الناس حدوداً للعبادة والصلاة ومن ثم يخترقونها؟

فأنتِ هيكلي وقدس أقداسي فإن أخذوك مني لم يعد لقداستي وهج ولا لمجدي علياء.

لا شمعة تطفي غليلي ولا حتى البخور.

لا يستهويني ملايين العشاق ولا ألوف المؤمنين، لنْ اقبل التوابع، ولا كهنة المقاصل ولا شيوخ المزابل.

ليسجدوا ما شاءوا وليعبدوا من شاؤوا، أنت معبودتي وعابدتي.

إبليس

جاء أحدهم إلى إبليس يوماً وقال له: أما زلت يا إبليس تحلم بالجنة؟

فقال: بلى! منذ يوم طردت منها وأنا أحلم بالعودة لها!

فقال له الرجل: وإن جعلتك تدخلها وتسكنها وتملك جزءاً منها ماذا تعطيني؟

فقال له إبليس: أعطيك جزءاً من مملكتي.

فقال له الرجل: عندي قطعة أرض في السماء وأريد أن أبيعك إياها، فاشترى إبليس تلك الأرض وأخذ من الرجل صك الملكية. وفي اليوم التالي بكّر إبليس ووقف على باب الجنة ونادى بفتح الباب فخرج له ملاك وقال له: ماذا تريد؟

فقال: أريد أن أدخل وأبني بيتاً بأرضي وأسكن هناك، وسلم إبليس الملاك صك ملكية الأرض، فنظر الملاك للصك وضحك جداً وثم نظر لإبليس وقال له:" أنت أيضاً! لقد تعرضت للنصب؟ هذا الصك مزور ولم يصدر من هيئة الأراضي السماوية".

جاء يا إبليس من ينصب عليك.

منشأ القداسة

كل الكُتب المقدسة نشأت وبدأت كروايات، ولأن لا مثيل لها في وقتها أُطلق عليها الناس كُتباً مقدسة.

إن الكتب المقدسة مجموعة من اللغة بتعابيرها وأحاسيسها استخدمها كُتّاب هذه الكتب بأفضل طريقة فأصبحت مليئة بالمثاليات والحِكم والقواعد والأخلاقيات.

نحن نعطي هالة مقدسة لبعض الاشخاص ولبعض الأشياء...

ونعطي صفات شريرة لبعض الاشخاص ولبعض الأشياء.

منذ نشوء العالم وما زلنا نكرم أشياء يحتقرها آخرون ونحتقر أشياء يقدسها آخرون...

يصلي أحدهم فيقلده عشرة ويصوم أحدهم فيقلده كذلك عشرة... وهكذا ابتلينا بأمة تمارس الدين تقليداً بالآخرين وترفاً وتكلفاً ليس إلاّ.

تمارسه ليظهر لهذه الأمة جانب مفقود هو الظهور بمظهر إيجابي ولذلك ترى معظم شعوبنا مأخوذين بتقوى الممارسين للصلاة وما يتبعها من مظاهر وظواهر.

سُبات آلهة

في الشرق آلهة كثيرة جداً إلى درجة أنها ملّت الكثرة والمنافسة فقرر معظمها الاعتزال والخلود إلى الراحة، فحلّ شتاؤها وهي تعتزل ألوهيتها المملة فذهبت في سبات عميق لم تصحُ منه بعد.

طقوس فارغة

جلس الرجل على المسوح وقد مزق ثيابه حزناً وألماً على فجيعة انهيار عالمه من حوله ثم قام ينثر التراب

ورماد بقايا النار التي كانت هنا أيام كان الخير نثرهما على رأسه...

ولكن على الرغم من كل الصراخ والعويل الذي يخرج منه لكن لا صوت لصراخه فكله مكبوت حتى في خروجه، ولذلك لم تقبل الآلهة صلواته.

أيتها الآلهة المتعطشة للدماء التي تأكلنا صباح مساء تباً لكِ من آلهة لا ترحم البشر...

ليس الدين ما نمارسه من طقوس وعبادات وحركات بل هو الحياة اليومية

لذلك فالذي يمارس عمله بإخلاص ليخرج قوت نفسه وعائلته إنما هو إنسان مؤمن وقديس وكل من يمارس قتلاً وذبحاً وترهيباً في الناس باسم ربه إنما هو إنسان شرير.

لا نستطيع أن نفصل الدين عن الأعمال ولا فصل الأعمال عن الإيمان ولا فصل الإيمان عن النفس البشرية.

إن الطقوس التي فرضت علينا لا تغدو أكثر من مجموعة حركات تكرارها يجعلنا آلة ويفرغها كما يفرغنا من المعنى والإحساس.

الفصل السابع
صيحاتُ رسائل

" سقط القناع.. عن القناع.. عن القناع..
سقط القناع ..
لا إخوة لك يا أخي... لا أصدقاء !
يا صديقي... لا قلاع !
لا الماء عندك، لا الدواء، لا السماء، ولا الدماء ...
ولا الشراع ولا الأمام ولا الوراء...
حاصر حصارك ... لا مفرٌّ !
سقطت ذراعك فالتقطها !
واضربْ عدوك..لا مفر ..
وسَقَطْتُ قربك، فالتقطني !
واضرب عدوك بي، فأنت الآن : حرٌّ..وحرٌّ..وحرٌّ
ذهب الذين تحبهم، ذهبوا..
سقط القناع، ولا أحد إلّاك في هذا المدى المفتوح للأعداء والنسيان ! "

محمود درويش

الفصل السابع
صيحات رسائل

رسالة إلى أولادي

جلس الأب يوماً يكتب هذه الرسالة لولديه قبل الرحيل:

ولديّ الحبيبين أعتذر لكما لأنني لا أستطيع أن أقدم لكما ملعباً كله زهور.

ولديّ الحبيبين أعتذر لكما لأنني على الرغم من محاولاتي لا أستطيع أن أقدم لكما وطناً بلون الورود.

أعتذر لكما لأنني خانعٌ أمام الكثير من القيود، والعجز والكثير من الديون.

أعتذر لكما لأن الإنسان في هذا المكان بلا كرامة وهو يسير إلى مزيد من الجنون.

أعتذر لكما لأننا كلنا ولدنا غرباء ونحن نازحون عن الإنسانية، ولاجئون في وطن نحمل منه الهوية ومسقط التراب ولا شيء أكثر.

أعتذر لكما لأن الخيال هنا حرام...

والتفكير هنا محصور فقط بالأشياء التافهة وبلا أشياء.

أعتذر لكما إن لم أستطع أن أجلب لكما المزيد من الهدايا فكل الهدايا مكلفة والهدايا الرخيصة بواريد ومسدسات وسيوف.

أعتذر لكما لأنني لا أستطيع أن أقدم لكما طفولة سليمة بألعاب سليمة وحكايا سليمة.

أعتذر لكما إن أهملت عن قصد بعض طلباتكما ورغباتكما...

فهذا يتعدى قدراتي...وكأنه يتعدى المستحيل.

نعم أنتما كالكثيرين من الأطفال.

قد تكونان أكثر حظاً من الكثير من الأطفال.

أعتذر لكما إن كنت والداً لا يستطيع أن يقدم إلاّ الكثير من الأعذار والقليل من الأشياء لكني أحبّكما وأقدم لكما حباً بلا شروط ولا قيود ولا حدود.

لا تخافا لم أضع أقنعة وأنا اتعامل معكما...

رسالة إلى الحزن

هناك فجوة عميقة بيني و بينك أيها الفرح، فلا جسر ينفع في تثبيت التواصل بيننا ولا أي نوعٍ من الاتصال.

لا يمكن لهذا الفرح أن يصل عندي ولا يمكنني أن أصل إليه وعلى الرغم من ذلك نعيش أحياناً في حرب طاحنة نقصف أحدنا الآخر وأحياناً تمر علينا فترات هدوء وسلام نقصف فيها بعضنا غزلاً وغراماً فيخيل للبعض أننا على وفاق ونحن فعلاً لسنا إلاّ على خلاف ولسنا إلاّ في هدنة فرضها علينا التعب وأننا لا نعمل سوى على تجييش أنفسنا.

ألا يصل الإنسان منا إلى درجة يشعر فيها أنه وصل الى مرحلة الاكتفاء الذاتي من الأحزان؟

حان وقت الحياة؟!!

ألا يجب أن نصل إلى مرحلة ما نقول فيها للأسباب التي تجلب الحزن: يكفي!

أن نقف في وجه الأحزان ونقول لها بجدية وحزم: يكفي!

أريد أن أعيش حياتي وأن أتناول جرعات كبيرة من لا اكتراث وأن أعيش حياتي فقط ليومين ولو من دون شعور...أو كمجنون...أو كمدمن مخدرات وكحول وأفْقد أي اتصال بدنيا الواقع.

من الضروري أن تفهم أحزاني حدوداً للعلاقة التي بيننا...

فلا تزورني في أي وقت وعند كل فراغ في وقتها... تدخل أحشائي من دون أن تطرق أبوابي لتحتسي عندي فناجين القهوة وتأخذني مسكناً لأيام وشهور وسنين وتعيث فساداً في هذا الجسد المتعب...

تأخذ مكاني وتشرب من دموعي وتقتات على آهاتي وتمر الليالي طويلة وأنا في زاوية مهملة من مكاني وهي تأخذ كل المساحة ويصبح الضيف مواطناً وأنا في المكان ألملم حاجاتي لعلي أترك المكان وأهاجر إلى حيث لا تقطن أحزاني...لكن إلى أين؟

أين المفر من أحزاني؟

فكل البلاد أحزاني وكل الأوطان ألمي وآهاتي...

إلى أين المفر؟

إلى مكان بعيد عني وعنها...مكان ما عاد لي فيه ثانٍ..

ولكن لا أستطيع أن أنسلخ عن هذا الضيف، فأنا ضعيف ومن دونه خالٍ من المعاني... لذلك أبقى في الزاوية وحيدًا وهو يجلس على أريكتي وينام على مخداتي

ويأكل من صحني ويشرب من كأسي ويمارس كل عاداتي كأنه أنا... وأنا ما عدت أنا... أنا فقط أشاهده يمارس حياتي.

ألا يجب أنْ يكون الضيف خفيف الظل؟

لطيف المجالسة، قليل الكلام، كثير الاستماع لي؟

لماذا لا يمارس ضيفي هذه الأخلاقيات؟ لأحبّه وأعشقه وأتمنى زياراته الاخرى...

لكن ضيفي قليل الأدب والذوق والمعرفة بأصول الضيافة فهو عبث حتى بمحتوياتي وعلبة ألعابي في صغري، عبث بملابسي وعلبة سجائري في شبابي.

ها هو يعبث بعلبة هي صندوق يسمى تابوتاً سيضعون فيه جسدي...

لقد أخطأت حين قلت إما أنا وإما أحزاني... فلا فرق بيننا والحكم بالموت عليه كان موتاً أجلبه لحالي.

شخص غير مرغوب به

تلك الرسالة القصيرة التي أتمنى وجودها على قصاصة ورق في الدفتر الذي أحتفظ به بعناوين اللواتي مررت بهن أمس وأول أمس ومنذ تلك الليلة التي بدأت فيها ممارسة تلك الممارسة.

في كل مرة كنت أنتهي من تلك المرة تقول لي: " أرحل" !

وبدل أن أمنح تلك الأسِرَّة ذات الملايات البيضاء الدفء المطلوب أجد نفسي أمنح تلك الأسِرَّة برودة سوداء من

تلك العواصف الهوجاء التي تصنعها الصحارى الثلجية في الألسكا.

وبدل أن أشتري " بدل استمتاع" ببعض الدنانير وأمنحه لي ولهن، أجدهن يتبرعن لي بالدنانير لأمنح قلمي تلك الحرارة التي تسمح له بالكتابة مُنتَصباً في وجه الظلم فلا يعتريه خوف ولا انهزام.

وهكذا كل ليلة أمرر نفسي بين تلك البوابة وتلك النافذة، تلك أدخلها عبر فتحات سرية وتلك أدخلها عبر أنفاق سرية وأمارس داخلها وعبرها وفوقها وتحتها ملايين المرات...

وكل مرة أجد ذات قصاصة الورق " أنت شخص غير مرغوب به ها هنا، أرجوك ارحل قبل أن أعتاد عليك" وأرحل...لأن وظيفتي هي أن أمارس الكتابة وأن أخونها.

رسائل في أحلام

الحلم في أثناء النوم هو حديث الضمير إلى أنفسنا نحاول كتمه في النهار والتحدث إليه في الليل فينطلق حراً من أسره من السجن الذي قيدناه فيه نهاراً لنكون كما يرغب الناس منا أن نكون...

إلتقيت في الحلم بأشخاص أحياء ولعل الحلم أوصل لنا منهم رسالة لم يستطيعوا أن يوصلوها لنا مباشرة...

والتقيت في الحلم بأشخاص رحلوا عنا منذ زمن!

لعلهم يريدون أن يلتقونا؟

لعل الاشتياق ما جعل اللقاء بيننا ممكناً ولو بحلم؟

إنّها الطّريقة الوحيدة لنستعلم أخبارهم أو نظنها أخبارهم والتي لا نعلم عنها شيئاً إلاّ بالحلم.

عندما نستسلم لقوى النوم العميق نحلم بأشياء لمْ ولنْ نفعلها في النهار... لذلك معظم كُتّاب الروايات المشهورة كتبوا رواياتهم العالمية عن أحلامٍ عاشوها وهم نيام.

رسالة إلى معتقل

لست وحدك السجين...

نختفي أحياناً بإرادتنا خلف جدران نصنعها من أوهام وندفن أنفسنا تحت تراب من خيال ليس بسبب الحزن بل لنقهر الأحزان، فننقي أنفسنا من الشوائب وننهض ونغتسل بكرسي الاعتراف الذي يسكننا ونتلو خلاله فعل الندامة ونبدأ من جديد لأن هناك دوما شيئاً جديدًا ولأننا لا نريد الانهزام...

كثيرون يا صديقي يبحثون عن الدفائن كالذهب واللقى الأثرية في الأرض للثراء، وهم لا يعلمون أن في داخلهم دفائن وذهباً لو حاولوا إخراجها لأصبحوا من الاثرياء... فكم أنت ثري يا صديقي.

هذا الصباح يا صديقي عندما استفقت وجدت نفسي بين القبور مدفوناً... لا من يبكي ولا من ينوح... لم أجد رجلاً يقرأ الفاتحة على روحي، ولا سيدة تمسح الدموع... لا يوجد شاهدٌ على قبري ولا حتى حجر فوق رأسي... ما حملوني على اكتافهم ولم يتذكروني بقداس

الاربعين.... شمعة لم يشعلوها قرب قبري ولم أشم رائحة البخور... وكأن قبري ليس له وجود!!!

أيها السائرون قرب قبري، صلوا لأجلي صلاة "الأبانا" وسورةً من كتاب الرحمن الرحيم...

ولكن لا أحد يعلم عني شيئاً وأنا خارج السجن ولا أحد يعلم عنك شيئاً وأنت داخل السجن... كلانا مجهول...

متى سأعزل نفسي؟ أحتاج أن أقود انقلابا يطيح بي... جيوشي سأحركها لتقصف وتقتل وتنهب بعضاً من مشاعري وتتحرش " بالأنا" وتقيم حكماً رشيداً وديمقراطية على دمائي.

متى سأضع السلاح من يدي؟

هذا السلاح الذي أقاتل به نفسي وأقتلها أو تقتلني في اليوم عدة مرات فلا أنا انتصر ولا نفسي تنتصر...

ومع ذلك يا صديقي نحن نعزف كل يوم معزوفة لا يسمعها إلاّ الاحرار و الأبطال...

بعضنا يعزف موسيقى رومانسية على أوتار أشعة الشمس... والبعض الآخر يعزف موسيقى تلامس القلب على أوتار ضوء القمر... وآخرون يعزفون الألم على أوتار جروح البشر...

لا تهتم يا صديقي إن أخطأ العالم فهمك... فكلما وصلت إلى مرحلةٍ من النضوج والوضوح في الأهداف فإن المسيئين لفهمك والمجادلين بسيرتك يزدادون عدداً لأنها لا تتسق مع " رجعيتهم" ولا مع غموضهم...

لا يهم إن غمست خبزك بالقليل من التراب ورشفت قليلاً من عرق جبين الأرض ذلك الماء الذي استخدمه أجدادنا للشرب والغسيل ولكل معالم الحياة، واستخدموه

للمعمودية عندما تنصروا وللوضوء عندما أسلموا والآن لا يهم ما هو دينك... المهم إنسانيتك... فالوطن إنسان وليس دينًا... والماء للجميع وليس لدين...

إشرب يا صديقي من مائها....لأنك بعدها لنْ تصبح غريباً عنها بل ابنا وشريكاً لتراب وماء الوطن... ولتصبح شجرة لا تنحني أبداً.

القائمة تطول والرسالة تطول... قد نجد حلاً لمشكلة واحدة من مشاكل الوطن لتنفتح في وجهنا سبع مشاكل أو ثمانٍ... قائمة تطول بحجم الوطن فهي تكبر ويصغر الوطن...

كم أرغب أن أعلن النفير العام، ولكن أسلحتي ليست كثيرة، وجنودي نيام.

كم وجهاً للحرية؟ وجه واحد... كم وجهاً للظلم؟ مئة وجه وكلها وجوه لتوائم قبيحة...

صديقي المعتقل... أشباه البشر يمارسون العيش، وأما أنت فتمارس الحياة...

أنت حر هناك ونحن معتقلون هنا... هنا في الخارج الاِعْتقال أصعب والسجن أرحب لكنه يضيق كثيراً إلى درجة الاِخْتناق...

إنني لست هنا، لست في المكان، إنني جسدياً هنا لكنني في الحقيقة هناك في غربةٍ حيث للكتابة طعم وللحرية طعم وللحياة طعم... هناك أحلم! فليدعوني أحلم... فالحلم هو الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أكون فيه حراً...

صديقي السجين... صلِّ لنا لِنُعتقَ من سجننا الكبير.

الفصل الثامن
أساطير الألواح المخفية[٦]

" أنا وأنتم أيها الناس مأخذون بما بان من حالنا متعامون عمّا خُفي من حقيقتنا "

جبران خليل جبران

[٦] نسبة للالواح الطينية السومرية والجداريات التي حملت أسرار العالم القديم، نسبة كذلك للمخطوطات القديمة التي كانت وما زالت تحمل أسرارًا دفينة.

الفصل الثامن
أساطير الألواح المخفية

يا غبصة يا غبيصة

من منكم يعرف قصة "يا غبصة يا غبيصة"؟؟ هي من التراث الحشموني العموني[٧] حيث كانت مادبا مقاطعة كبرى من بلاد الطاخ طيخ حيث العشائرية تصل لحدودها ولا يسود إلاّ منطق طيحلي وأطيحلك بالسهام والنشاب.

فيقال إن راعي أغنام من عشائر عمون كان يسير بشلية غنم في المراعي فزحف بطريق الخطأ في مراعي شيخ عرب المؤابيين فألقى رعيان الشيخ القبض عليه وأخذوه للشيخ! وكان للشيخ ثلاث بنات، الكبرى اسمها حسناء وبالفعل كانت حسناء جميلة جداً لدرجة أن كل رجال القبيلة كانوا يتمنونها لكنها هربت مع ابن شيخ نبطي وأعلنت نبطيتها بعد أن دخلت دخالة على شيخ من الفراعنة وأهدر المؤابيون دمها. أما البنت الثانية فاسمها غبصة وكانت شديدة السواد طويلة ونحيلة جداً ومنفوشة الشعر والثالثة الصغرى واسمها غبيصة بدينة وقصيرة جداً شديدة البياض لدرجة البهاق ولم يكن لهما نصيب في الزواج. فوجدها الشيخ فرصة للتخلص من إحدى ابنتيه فقال للراعي: أمامك خياران " إما الموت... أو الزواج". فاختار الراعي الزواج باعتباره أهون

---

[٧] لا يوجد ترابط تاريخي بين هاتين القوميتين، فقط ترابط في هذا الكتاب لغايات القصة.

الخيارين... فأحضر الزعيم ابنتيه غبصة وغبيصة ووضعهما أمامه وقال له " يا غبصة يا غبيصة" فللحال جن الراعي وهرب وهو يصرخ يا غبصة يا غبيصة... وتبعه جنود الشيخ وقتلوه وما زالت روحه للآن تئن في وديان مقاطعات الحشمونيين والعمونيين وهي تردد ... يا غبصة يا غبيصة... يا غبصة يا غبيصة... يا غبصة يا غبيصة.

يا غبصة يا حزينة

الآن سأحدثكم عن قصة يا غبصة يا حزينة وهي أيضا من التراث الحشموني العموني حيث يسود منطق الطيحلي والطيحلك، فيقال إن راعيًا من رعيان الشيخ قرر أن يتزوج إحدى ابنتي الشيخ ليس محبة بالشيخ ولا بابنتيه بل لأنه سيرث العرش الحشموني العموني. فأخذ يخطط هذا الراعي لفكرة الزواج من إحدى هاتين الفتاتين القبيحتين ويحاول أن يخرج بأقل الخسائر الممكنة وقرر في النهاية الزواج من غبصة لأنها الأقل قبحاً والأكبر سناً وأيضا الأكثر غباءً وخطط أن تقوم غبصة لاحقاً باغتيال والدها قبل أن تتزوج غبيصة التي هي أكثر ذكاءً فيأخذ زوج الصغرى عرش الأب. فتقدم الراعي للزواج من الثانية غبصة ولم تسع الفرحة الأب الشيخ ووافق فوراً وقرر أن يحتفل هو والقبيلة أربعين يوماً وأربعين ليلة، وفي الليلة الأربعين يدخل الراعي على غبصة. وخلال الأربعين يوماً كان الأب قد أحضر من بلاد السند والهند أربعين مشعوذًا وساحراً للجمال يحاولون إضفاء لمسات من الجمال على غبصة

بمساحيق ومستحضرات قد أعدوها من الطبيعة. وفي اليوم الأربعين وحين حل موعد دخول الراعي على غبصة صلى الراعي صلوات متعددة لآلهة الجمال الحشمونية والعمونية والمؤابية وحتى إنه صلى لآلهة الجمال اليونانية على الرغم من أنه يكفر بها لكي تسهل هذه الآلهة دخوله على غبصة وما إن أنهى صلواته الطويلة وهّم بدخول الخيمة حتى شاهد في الباب رجلاً يبتسم فسأله ماذا يفعل في خيمة زوجته فتغيرت ملامح هذا الرجل وقال بصوت جهوري: هذا أنا غبصة يا حبيبي. فللحال أصيب الراعي بسكتة قلبية وسقط ميتاً، أما غبصة فأخذت تصيح: يا غبصة يا حزينة يا غبصة يا حزينة....ومنذ ذلك الوقت وتتناقل الناس جملة "يا غبصة يا حزينة" إشارة لعدم اكتمال الشيء...وذكرى الأربعين إشارة لخروج الروح من الجسد... وقررت النساء من وقتها الامتناع عن مستحضرات التجميل خلال فترة الحداد كمشاركة لغبصة في حدادها على الراعي.

ما قال في الحمار

يُحكى أنَّ "مجحم" قرر إكمال دراسته الجامعية فذهب إلى إحدى الجامعات المشهورة والمصنفة بأنها من أفضل الجامعات للتسجيل فخيروه بين تخصص أدب انجليزي وطب بيطري (ولا تقولولي شو دخل هاي بهاي لانو هيك بيطلع عنا) ففكر مجحم ملياً وقرر اختيار تخصص الطب البيطري لأنه يملك حماراً. وفي أول يوم دوام له في الجامعة أحضر معه حماره الذي

يسميه "فطحل"[٨] ودخل به قاعة المحاضرات فصاح عليه الأستاذ الدكتور بأن يخرج الحمار خارجاً فاعترض مجحم وقال له: "هذا فطحل يا دكتور" فرد عليه الدكتور: " يعني فطحل زمانو؟ اطلع برى أنت وإياه" فرد مجحم: " ألسنا ندرس الطب البيطري يا دكتور؟" فأجابه بالإيجاب فقال: " وعلى ماذا نطبق الطب البيطري؟" فقال له الدكتور: " على الحيوانات" فقال: " إما الغرفة مليئة بالفطاحل وتطبق علمك عليهم، وإما الغرفة مليئة بالطلاب وينهلون تدريباً من فطحل"!

حي يا مار

يُحكى أنَّ أميرا كان يحكم بلاداً يشغلها الكثير من الأدباء والعلماء والشعراء والمثقفين وكان هذا الأمير غبياً ومصاباً بجنون العظمة ويحكم بلاده بالقوة والجبروت والدكتاتورية فكان الشعب يهابه ولا يعارضه علانية. وكان اسم الأمير الثلاثي حِي بكسر الحاء ووالده اسمه يا وجَدّه اسمه مار. فكان اسمه الثلاثي " حِي يا مار" وكان وزيره أغبى منه ويدعى أبله[٩].

وكان يعيش في هذه الإمارة رجل اسمه مجحم وكان مجحم يملك حماراً، ولكن لم يكن وقتها يطلق على الحمير لقب حمار بل كان يسمى (أبو صابر)[١٠].

في يوم من الأيام قرر الأمير حِي أن يخطب في الشعب، فجمع الجند الشعب بالقوة وحشروهم في ساحة القصر

---

[٨] فطحل بالعامية وعبقري بالفصحى.

[٩] الأبله هو من في عقله ضعف أي الغبي.

[١٠] لقب من ألقاب الحمار.

وأخذوا ينتظرون الأمير ليخرج ويخطب فيهم، وبعد ساعات صعد الأمير حِي شرفة قصره فشاهد الشعب كله محشوراً حشراً في ساحة قصره فذهل وقال: " ماذا يحدث؟ لماذا يقف الشعب في ساحة قصري؟" فقال له وزيره أبله :" يا مولاي أنت طلبت أن تخطب في الشعب فأحضرناه إليك" فقال الأمير حِي: " ولماذا يا أبله أخطب في الشعب؟" فقال له أبله: " لا أعلم يا مولاي أنت طلبت أن تُلقي خُطبة ونحن جلبنا إليك الشعب".

وكان الشعب يستمع لمحادثة الأمير حِي والوزير أبله، فقال الأمير حِي موجهاً كلامه للشعب: " أيها الشعب أحبّبتُ أنْ أبلغكم أنني عزلت أبله عن الوزارة، اذهبوا أنتم طلقاء". فألقى الجند القبض على أبله وهرب الشعب منتشرين إلى بيوتهم وهم يضحكون على غباء الأمير والوزير.

في اليوم التالي عاد الجند يجبرون الشعب على التجمع أمام القصر ويحشرونهم هناك حشراً، وكان الخوف والدهشة يملآن قلوب الشعب وبعد ساعات ظهر الأمير من شرفته تملؤه الدهشة والاستغراب وقال: " من هؤلاء الذين في ساحة قصري؟" فقال له أحد الجنود: " أنت طلبت يا مولاي أن تخطب في الشعب فأحضرناه أمامك" فقال له حِي: " ومن أنت لتخاطبني؟ أين أبله؟" فصرخ الشعب كله بصوت واحد: " أبله في السجن" فقال لهم الأمير مندهشاً: " ولمَ هو مسجون؟ ماذا فعل ؟" فقال أحد الرجال: " أنت وضعته في السجن" فغضب الأمير وأمر الجنود أن يضربوا الرجل بالسياط

وكان هذا الرجل يدعى مجحم. ثم أفلت الجنود الشعب ففروا إلى بيوتهم مذعورين.

في اليوم الثالث عاد الجنود وجمعوا الشعب في الساحة وأحضر الجنود أبله مقيداً ومعه الجندي الذي خاطبه فخرج الأمير وقال:" الآن عرفت لِمَ جمعت الشعب!" فلم يتحدث أحد وبقي الشعب صامتاً ثم قال حِي: " إن أبله وزيري يعارضني ويتآمر علي فقررت أن أقطع رأسه والجندي الذي يسانده" فوضع الجند أبله والجندي الذي أجاب الأمير في الساحة أمام الشعب وقطعوا رأسيهما. فقال الأمير موجهاً كلامه للشعب: "هل من يعارض؟ " فقام مجحم وقال : " يا مولاي أبله من يعارضك" ثم صمت وقال: " عاش الحِي يا مار " فردد الشعب: " عاش الحمار " فقال مجحم : " عاش الحي يا مار" فردد الشعب: " عاش الحمار". فعين الأمير مجحم وزيراً بدل أبله.

في اليوم الرابع أطلق الشعب اسم أبله على كل من يتحدث بما لا يعنيه ويلقى جواباً لا يرضيه. وأما مجحم فقد صار يمتطي "أبو صابر ويسميه حمارًا" ويقول له: "حِي يا حمار" بمعنى امشِ.

ذيل الكلب أعوج

يُحكى أن "مجحم" أراد أن يمتلك كلباً ليحرس به مزرعته فذهب إلى سوق الكلاب ليبتاع كلباً فلم يجد طلبه لأن جميع الكلاب في السوق كانت مريضة، ثم ذهب إلى سوق كلاب آخر في قرية أخرى وأيضا لم

يجد كلباً إلاّ وكان مريضاً وهكذا حتى تَعِبَ محجم من البحث عن كلبٍ سليم في أسواق الولاية كاملة فعاد إلى قريته يشكو لأهلها سوء الأحوال الصحية للكلاب، وقرر تأسيس جمعية لحماية الكلاب من المرض وأخذ ينظم اجتماعات لأهل القرية في جمعيته يشكو فيها إهمال الأمير وحاشيته لوضع الكلاب الخطير وتفشي المرض في جميع كلاب الولاية فتعاطف الناس جميعاً مع مجحم وزاد الاحتجاج وأخذ المعارضون للأمير من اليسار واليمين ينتسبون لجمعية مجحم وينظمون خُطباً وأشعاراً نارية ضد الأمير الذي كان يشرب ويسكر ويقامر ويصرف من أموال الإمارة على جواريه وخدمه وحاشيته ببذخ وتبذير من دون الاهتمام بكلاب الإمارة وإيجاد حل للمرض الخطير، وأخذ اليساريون واليمينيون يضعون نظاماً داخلياً لجمعية الكلاب فاختلفوا في بند علمانية الجمعية وفي إدارتها، فوصل صياحهم لمسامع مخابرات الأمير الذين نقلوا أمر الجمعية لسمو الأمير فأمر بسجن مجحم وإغلاق مقر جمعيته فقام الجنود بإغلاق مقر جمعية الكلاب وساقوا مجحم إلى سجن الولاية وهناك حكم عليه القاضي الفاسد بالسجن مدى الحياة لتشكيله تنظيماً مشبوهاً وغير مرخص ومعارضة الأمير . فعلم المعارضون بذلك فاجتمعوا والناس المتعاطفين مع مجحم وقرروا القيام بمظاهرات واعتصامات حاشدة أمام قصر الأمير فخاف الأمير من شدة المظاهرات والاعتصامات خصوصاً أن نداءات المعتصمين أصبحت تدعو بإسقاط الأمير والعلاج للكلاب، فقرر الأمير إحراج مجحم وإظهار غبائه فأمر بجلب مجحم لدار الإمارة، وجمع الأمير أيضا أعيان وحكماء الإمارة والوزراء. فأحضر الجند

مجحم مكبلاً بالقيود ووضعوه في منتصف القاعة أمام الأمير فسأله الأمير: "ماذا تريد يا مجحم؟" فقال مجحم: " أن تهتم أيها الأمير بالكلاب وأن تعالجها من مرضها". فأمر الأمير بإحضار كلبه الخاص فأتى حارسٌ يحمل كلب الأمير الخاص ووضعه تحت قدمي الأمير فجلس الكلب عند ساقي الأمير يتثاءب فقال له الأمير: " أترى! أنا أحبُّ الكلاب"، وربت الأمير على ظهر الكلب فعكف الكلب ذيله ونام تحت قدمي الأمير فصاح مجحم في الأمير وقال: " حتى كلبك يا سمو الأمير مريض"، فنظر الأمير مندهشاً لكلبه ثم نظر لمجحم وسأله: " ما بال كلبي؟" فقال مجحم: " ما بال كلبك؟ إن ذيله أعوج يا أمير". فوقع جميع من في القاعة على الأرض من شدة الضحك وما إن هدأت القاعة من الضحك حتى تكلم الأمير وقال: " يا مجحم إن استطعت أن تعالج كلبي وحده سأمنحك نصف إمارتي ونصف أملاكي وسأمنحك لقب أمير الكلاب ولأجل هذا سأعطيك مهلة شهر وسأطلق سراحك خلال هذه المدة وبعد شهر إن لم تعالج كلبي من مرضه سأقطع رأسك ورأس كل من انتسب لجمعيتك". فوافق مجحم وطلب أن يأخذ كلب الأمير إلى البيت فوافق الأمير، أما مجحم فأخذ كلب الأمير وذهب إلى بيته وقام بتجبير ذيل الكلب وأخذ يعتني به ويغذيه من أفضل الأطعمة ومنحه سريره وكل وسائل الراحة وبعد مرور شهر أتى الحراس وأخذوا مجحم والكلب للقصر حيث كان يجتمع الأمير مع أعيان وحكماء الإمارة والوزراء ووضعوهما أمام الأمير، فقال الأمير لمجحم: " هل قمت بعلاج كلبي" فقال مجحم: " بالطبع أيها الأمير" ثم قام مجحم وكسر الجبيرة التي حول ذيل الكلب، فوقف الكلب وكان ذيله

مستقيماً لا يتحرك فتعجب الحضور جميعا بما فيهم الأمير وأصبحوا يتهامسون فيما بينهم أما الأمير فبقي ينظر للكلب والصدمة على وجهه وما أن أفاق الأمير من صدمته حتى علت وجهه ابتسامة ونادى على الكلب أما الكلب فلما سمع صوت الأمير أخذ ينبح وركض باتجاهه فرحاً يلوح بذيله وما إن وصل لقدمي الأمير حتى جلس أرضا وعكف ذيله فأثار ذلك دهشة واستغراب الجميع فقال الأمير: " أراك يا مجحم لم تعالج الكلب كما اتفقنا". أما مجحم فابتسم وقال: " لقد كان ذيل الكلب مستقيماً يا سمو الأمير ولكن عندما سمع صوتك عاد ذيل الكلب أعوج كما كان وبشهادة كل من كان حاضراً في القاعة". فصمت الحضور وأخذوا يتبادلون النظرات وفي عيونهم تصديق لكلام مجحم، أما الأمير فقال:" ماذا تعني بكلامك يا مجحم". فقال مجحم: " إن الكلب كان سليماً ولكن لك يا سمو الأمير تأثيرًا سلبيًّا على الكلاب"، فجن جنون الأمير وأمر بقطع رأس مجحم فتململ الحضور، فقال الأمير: " ما رأي الحضور؟" فقالوا: " لقد صدق مجحم"، عندها حصل مجحم على لقب أمير الكلاب ونصف مملكة الأمير وأمر مجحم بأن لا يقترب من مملكته أي كلب.

منو الي بلب التينة

يُحكى أنَّ عجوزاً كانت تجلس دائماً أمام باب بيتها المطل على بستانٍ صغير وهناك كانت تجلس تحرس رهطاً من دجاجاتها وعنزاتها وأرانبها وبعضاً من شجر التين والرمان والليمون والعنب. وفي يوم من الايام

وهي جالسة هناك رأت خيالاً في شجرة التين وسمعت تكسير بعض اغصان الشجرة، فصرخت بأعلى صوتها:" منو الي بلب التينة؟" فصرخ طفل فضولي جائع من داخل التينة خوفاً: " هذا أنا يا حجه"، فارتاحت أسارير العجوز وقالت للطفل: " خمنتك الضبع يا بني"، وجلست الحجة تحت الشجرة مجهزةً حذاءها تنتظر نزول الطفل لينال نصيبه من التعدي على شجرة الحجة، وما إن نزل عن الشجرة حتى أكل مع التين ضرباً جعله يتعلم ولا يعيد الكرة لا بأكل التين ولا بالاقتراب من بيت العجوز وبستانها.

لاحق العيار لباب الدار

يُحكى أنَّ "مجحم" كان "بطوني" لا يشبع. وكان دوماً يقول لأصدقائه أن زوجته طابخة له " منسف على لحمه بلدي" وفي اليوم التالي " خروف محشي" وفي اليوم التالي " عجل مسمن" وفي اليوم التالي " زرب على خروف كامل" وهيك كل يوم. وكان زملاؤه يطلبون منه كل مرة أن يعزمهم عزيمة مرتبة فكان يتحجج كل مرة ويقول لهم: " إلكو عندي عزومه وأنا ما باكل حق حدا وعدتو". فاتفق زملاؤه في العمل أن يحرجوه ويكشفوا كذبه وتزيفه ونفاقه.

وفي أحد الأيام وما أن قدم مجحم للعمل حتى سأله زميله: " مرتك شو طابخه يا مجحم اليوم؟" فقال له: " اليوم مرتي طابخه خروفين محشيين صنوبر ولوز وفستق وشوية رز، والله قبل كم يوم أكلنا خروفين محشيين ولسه طعمتهم على لساني، ومن كثر ما

انبسطنا أنا والاولاد قلنا للمرة تذبح اليوم خروفين وتطبخهم" فقال له زملاؤه: " يا زلمه بتوكل أنت وأولادك خروفين؟" فقال لهم مجحم: " لا يا دوب نص خروف والباقي بروح بالزبالة" فقال له أحدهم: " ليش تحطهم بالزبالة، حرام يا رجل! إحنا زملاءك بالعمل بنيجي عندك اليوم وبنوكل معكو وما بروح شيء على الزبالة" فانصدم مجحم وخاف وقال لهم: " لا بيجوز يجو دار حماي عندي" فقالوا: " إذا أجى دار حماك بنروح ويا دار ما دخلك شر" وطوال اليوم ومجحم يحاول ثني زملائه في العمل عن القدوم إلى بيته من دون فائدة وأحياناً يتحجج بمرض زوجته وأنها قد لا تطبخ وأحياناً أن الخروفين بيوكلوا أكل غير صحي وبيجوز فيه إشعاعات ولكن لم تنجح أي من محاولاته في ثني زملائه عن قرارهم.

وعند انتهاء الدوام مشى مجحم مثقلاً مطأطأ الرأس وخلفه زملاؤه مبتسمين متوجهين جميعاً سيراً على الأقدام لبيته، وفي أثناء المشي قال لهم مجحم: " يا إخوان أنا ما بدي أصدمكم بس طبيخ مرتي بيخزي" فلم يرد أحد عليه ثم قال: " يا إخوان أنا ما بدي أحرجكم ترى ولادي لما بيوكلوا بيعملوا حركات مقرفه" فلم يرد أحد عليه ثم قال: " يا إخوان أنا ما بدي أزعلكم ترى مش متذكر هم خروفين أم خروف" كمان ما ردوا ثم قال: " يا إخوان العزيمة صايرة صايرة بس بجوز الخروف مريض وأبصر المرة لحقت تذبحو قبل ما يموت أو طبختو وهو فاطس" فلم يعيروه انتباهاً، ثم قال: " آه والله تذكرت المرة قالتلي أنو ما في عنا مكسرات و رز لتحشي الخروف عشان هيك أكيد ما

طبخت الخروف" أيضاً صمتوا، وبعدها بقليل وصلوا لبيت مجحم، فقال لهم: " يا اخوان ترى أنا ما باكل حق حدا، إلكو عندي خروفين محشيين بس مرتي اليوم طابخه شوربة عدس".

جرح ذقن مجحم الخادش للحياء

يُحكى أن محجماً جرح ذقنه جرحاً بسيطاً عندما كان يحلق، فنزف منه قليلٌ من الدم ثم خرج مجحم إلى السوق فمر بالإسكافي فسأله الإسكافي: " ما بال ذقنك يا مجحم مجروحاً؟" فقال له: " تعاركت مع جندي من جنود الوالي الظالم فأصابني إصابة بسيطة ثم صرعته بيدي"، فحياه الإسكافي وقدم له حذاءً جديداً فلبسه وسار مغتراً متفاخراً في السوق فرآه الفاكهاني فسأله: " ما أصاب وجهك يا مجحم؟ أأنت مجروح؟" فقال له: " اعتدى ثلاثة جنود على الإسكافي فأصابوني بسهمٍ في ذقني فصرعتهم وكافأني الإسكافي بهذا الحذاء". فحياه الفاكهاني وقدم له أكياساً من الفاكهة والخضروات فأخذها مجحم وفي الطَّريق رآه الحلواني فقال له: " سلامتك يا مجحم، كيف أُصبت بهذا الجرح؟" فقال له مجحم: " في أثناء مروري بالسوق هجم جنود الوالي الظالم على الاسكافي والفاكهاني فقمت بالدفاع عنهما فأصابني الجنود في وجهي بالسيف فغضبت غضباً شديداً وصرعتهم صرعاً فكافأني الاسكافي بالحذاء والفاكهاني بهذه الأكياس المليئة من أطيب الخضروات والفاكهة". فسر به الحلواني وقدم له أطباقا من الحلويات اللذيذة، فسار مجحم مثقلاً تعباً من الحمل الشديد حتى

أعياه هذا الحمل وحرارة منتصف نهارِ صيفي حارق وعاد جرح ذقنه البسيط ينزف قليلاً من الدم فوقف عند باب اللحام يأخذ أنفاسه ويمسح ذقنه فسأله اللحام: " لمَ أنت تَعِبٌ يا مجحم ولماذا يقطر وجهك دمًا؟"، ففكر مجحم وقال إن كذّبت الكذبة نفسها سيعطيني قليلاً من اللحم وما عدت أستطيع أنْ أحمل وزناً أكثر لكن إنْ كذبت كذبةً كبيرة فسيعطيني خروفاً ويساعدني في حمل هذا الوزن الثقيل للبيت، فقال له مجحم: " في أثناء تجوالي في السوق حدث أن هجم بعض جنود الوالي الظالم على السوق يريدون أنْ يأخذوا ضرائب جائرة من التجار فتصديت لهم وأصابني أحد الجنود بسيفٍ اخترق وجهي لكن الملائكة نزلت فعالجتني وأهداني تجار السوق ما ترى من هذه البضاعة". فقال له اللحام: " ولمَ تصديت لهم يا مجحم؟ " فقال: " لأنني أقود المجاهدين ضد الأمير الكافر الزنديق" فسر به اللحام جداً وأهداه خروفاً مسمناً ولكنه لم يساعده في حمل الهدايا فسار مجحم نحو البيت مثقلاً تعباً يجر الخروف ويحمل هداياه إلى أن وصل البيت فسألته زوجته: " ما هذه الاغراض يا مجحم"، فقال لها: " وأنا في السوق هجم رهط من اللصوص على السوق يريدون سرقة التجار فهممت لأساعدهم وشكلنا معاً سرية من المقاومة وحملنا ما معنا من سلاح قليل وتوكلنا على الله وهاجمناهم وقاتلناهم ورغم قلة عددنا قتلنا منهم ألفاً وجرحنا مئة ألف وسبينا نساءهم وحصلنا على غنائم كثيرة وهي التي ترينها يا عزيزتي"، فسرت الزوجة واعطت سكيناً لمجحم لكي يذبح الخروف ويأكلوا لحمه فخرج مجحم وحاول ذبح الخروف ولكنه لا يعرف ذبح الخراف فقد تعب وهو يحاول نحر الخروف إلى أنْ

استطاعَ أخيراً فملأت الدماء ثيابه، ولكي لا تشاهد زوجته دماء الخروف تغطيه كله قرر أن يذهب إلى بئر القرية ليغتسل وينظف سكينه فرآه جاره فسأله عن سبب هذه الدماء كلها، فقال له: " وأنا جالس في البيت مع زوجتي هجمت علي سرية من جنود الأمير يريدون قتلي وزوجتي " فقال له: " ولمَ يريدون قتلك؟" فقال: " لأنني رئيس المعارضة وكبير المقاومة " فقال: " ودماء من هذه يا مجحم وأنت حي ترزق"، فقال: " دماء الجنود فقد اِستلَّيت سكيناً وقتلتهم جميعاً ولم أبقِ على أحد منهم " فقال له جاره: " أحسنت صنعاً وإلى أين تريد أنْ تذهب الآن؟ " فقال مجحم له: " أريد رأس الأمير ولكن قررت أنْ لا اذهب اليوم بل غداً وسأكتفي بأن أذهب إلى البئر لكي أشرب قليلاً من الماء وأغتسل وإنّ غداً لناظره قريب" وفي اليوم التالي كان كل من في القرية يتحدثون عن بطولات مجحم ولكن كان لكل واحد منهم رواية فاختلفوا فيمن يروي الحدث الدقيق فذهبوا جميعا إلى بيت مجحم فسألوه عن أي الروايات أدق فقال لهم : " جميعها... لأنها كلها حدثت"، وللآن يتحدث أهل القرية عن بطولات وعظمة هذا الإنسان المؤيد من السماء الملقب بمجحم.

سيرة الكاتب

ولد عام ١٩٧٣ في مدينة مادبا في الأردن وأنهى دراسته الثانوية في مدرسة اللاتين الثانوية وحاصل على شهادة بكالوريوس في إدارة الأعمال.

متزوج وله ولدان.

عمل مديراً لعدد من الأقسام الإدارية في عدد من المؤسسات والشركات ومواقع العمل العام، كما أنه عضواً في عدة جمعيات وهيئات ثقافية وإجتماعية.

لديه العديد من المقالات والأبحاث المنشورة في عددٍ من المواضيع الإدارية.

كاتب في المجالات السياسية والإجتماعية والسياحية وفي الكتابة الساخرة في عدد من المواقع الإخبارية الإلكترونية السياسية والإجتماعية.

صدر له مجموعة من المؤلفات:

الأول: " إدارة المواقع الأثرية وتسويقها سياحياً" / كتاب علمي – مكتبة الراتب العلمية - عمان ٢٠٠٣.

الثاني: " مواقع التراث الثقافي – إدارة وسياحة وتسويق" / كتاب علمي – وزارة الثقافة الأردنية – عمان ٢٠١٢.

الثالث: " ليتني...يوميات عاشق غريب" / مجموعة مقطوعات نثرية - ٢٠١٤.